أميل حبيبي

الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس

المتشائل

مكتبة علي بن صالح الرقمية

إميل حبيبي

الْمُتَشَائِل

روايــة

1974

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الكتاب الأول يعاد

مِسْك الختام

أنتُم، أيها الرجال!

وأنتنّ، أيتها النساء!

أنتم، أيها الشيوخ والحاخاميون والكرادلة!

وأنتنّ، أيتها الممرضات وعاملات النسيج!

لقد انتظرتُم طويلاً

ولم يقرع سعاة البريد أبوابكم

حاملين إليكم الرسائل التي تشتهون

عبر الأسيجة اليابسة..

أنتُم، أيها الرجال!

وأنتنّ، أيتها النساء!

لا تنتظروا، بعدُ، لا تنتظروا!

اخلعوا ثياب نومكم

واكتبوا إلي أنفسكم

رسائلكم التي تشتهون..

سميح القاسم

[قرآن الموت والياسمين]

سعيد يدّعي التقاء مخلوقات من الفضاء السحيق

كتب إليّ سعيد أبو النحس المتشائل، قال: أبلغ عني أعجب ما وقع لإنسان منذ عصا موسي، وقيامة عيسي، وانتخاب زوج الليدي بيرد رئيسًا علي الولايات المتحدة الأميركية.

أما بعد، فقد اختفيت. ولكنني لم أمت. ما قتلت علي حدود كما توهم ناس منكم، وما انضممت إلي فدائيين كما توجس عارفو فضلي، ولا أنا أتعفن منسيّا في زنزانة كما تقوّل أصحابك.

صبرا، صبرا، ولا تتساءل: من سعيد أبو النحس المتشائل هذا؟ لم ينبه في حياته، فكيف ننبه له؟

إنني أدرك حطتي، وإنني لست زعيمًا فيحس بي الزعماء، ولكن، يا محترم، أنا هو الندل

ألم تضحك من الأضحوكة الإسرائيلية عن السبع الذي تسرب إلي مكاتب اللجنة التنفيذية؟ ففي اليوم الأول افترس مدير التنظيم النقابي، فلم ينتبه زملاؤه.. وفي اليوم الثاني افترس مدير الدائرة العربية، فلم يفتقده الباقون. فظل السبع يمرح مطمئنّا ويفترس مريئًا حتي أتي علي ندل السُفرة، فأمسكوه.

أنا الندل، يا محترم، فكيف لم تنتبهوا علي اختفائي؟

لا هم. فالأهم أن اختفائي جاء في أمر عجب ترقبت وقوعه طول العمر. وقعت العجيبة يا معلم، والتقيت مخلوقات هبطت علينا من الفضاء السحيق. وأنا ذا موجود الآن في المعية. وأنا ذا أكتب إليك بسري العجيب هذا، وأنا محلق فوق رؤوسكم.

إياك والريبة، وقولك إن عصر العجائب قد ولّي. فما دهاك، يا معلمي، حتي صرت تعكس الأمور؟

أما والذين أنا في كنفهم، فإن عصرنا هذا لهو من أعجب العصور، منذ عاد وثمود، إلاّ أننا ألفنا هذه العجائب. فلو قام أسلافنا واستمعوا إلي الراديو، وشاهدوا التلفزيون، ورأوا طائرة الجامبو وهي تهبط في ليل المطار الدامس، تنش وتقصف، لأشركونا.

ولكننا تعودنا. فلم نعد نجد في خلع الملوك خارقًا ولا في بقائهم. فبروتس لم يعد أمرًا فذا تكتب الروايات عنه: حتي أنت يا بروتس! ولا تقول العرب: حتي أنت يا بيبرس! وذلك أن السلطان قطز لم يخرج من فيه سوي حشرجة تركية. وما زال أبو زيد الهلالي يكب علي الأيدي تقبيلاً، فلا

يتطير السلطان.

لست قطز – يقول الملك. ولا زماني زمان الببرسة يقول: عبده.

والقمر أصبح أقرب علينا من تينتنا القمراء في قريتنا الثكلي. وسلمتم بكل هذه العجائب، فكيف تنكرون عليّ عجيبتي؟

مهلاً، مهلاً ولا تتعجل الشرح، يا معلم. كل شيء في وقته يعسل. فاذهب بسلامتك ولا تماحكني في شكلهم، وفي لباسهم، وفي نظامهم، وفي علومهم. إني أقهقه في وجوهكم: لقد أصبحت أعلم ما لا تعلمون، فكيف لا أتبغدد؟

أما كيف اختاروني من دون خلق الله أجمعين، فلست متيقنًا أنني الوحيد الذي التقاهم. وحين استنصحتهم في إطلاعك علي ما وقع لي، كي يعلم العالم، تبسموا وقالوا: لا بأس. ولكن العالم لن يعلم. وصاحبك لن يصدقك، فليس كل ما يهبط من السماء وحيا. وهذه من عجائبكم!

قد لا أكون الوحيد الذي اختاروه. ولكنني، وحقك، مختار من المخاتير. وأنت أيضًا، يا معلم أصبحت مختارًا. فأنا اخترتك لتروي عني أعجب عجيبة، فتميط عجبًا!

كيف اختاروني؟ لأنني اخترتهم. ظللت طول العمر أبحث عنهم، وأنتظرهم، وأعوذ بهم، حتي لا مندوحة.

عجيبة؟ لا بأس. كان أسلافنا في الجاهلية يصنعون آلهتهم من التمر، حتي إذا جاعوا أكلوها. فمن الجاهلي يا معلم، أنا أم أكلة آلهتهم؟

ستقول: لأن يأكل الناس آلهتهم خير من أن تأكلهم الآلهة. فأرد عليك: إن آلهتهم كانت من التمر!

سعيد يعلن أن حياته في

إسرائيل كانت فضلة حمار!

لنبدأ من البداية. كانت حياتي كلها عجيبة. والحياة العجيبة لا تنتهي إلاّ بهذه النهاية العجيبة. حين سألت صاحبي الفضائي: كيف آويتموني؟ قال: هل لديك من بديل؟

فمتي كانت البداية؟

كانت البداية حين ولدت مرة أخري بفضل حمار.

ففي الحوادث كمنوا لنا وأطلقوا الرصاص علينا. فصرعوا والدي، رحمة الله عليه. أما أنا فوقع بيني وبينهم حمار سائب، فجندلوه. فنفق عوضًا عني. إن حياتي، التي عشتها في إسرائيل بعد، هي فضلة هذه الدابة المسكينة. فكيف علينا أن نقوم حياتي يا أستاذ؟

غير أنني أراني إنسانًا فذًا. ألم تقرأ عن كلاب لعقت الماء المشبع بالسم، فماتت، لتنبه أسيادها ولتنقذ حياتهم؟ وعن الخيول التي فرت بفرسانها الجرحي، تعدو سوابق ريح، فأنفقها الإجهاد بعد أن بلغت بهم مضارب الأمان؟ أمَّا أنا فأول إنسان، علي ما أعهد، أنقذه حمار محرن لا يسابق ريحًا ولا يبغم. فأنا إنسان فذ. وقد يكون الفضائيون اختاروني علي ذلك.

علمني، بحياتك، الإنسان الفذ من يكون؟ أهو الذي يختلف عن الآخرين، أم هو الواحد من هؤلاء الآخرين؟

قلت إنك لم تحس بي أبدًا، ذلك أنك بليد الحس يا محترم. فكم من مرة التقيت اسمي في أمهات الصحف؟ ألم تقرأ عن المئات الذين حبستهم شرطة حيفا في ساحة الحناطير (باريس حاليًا) يوم انفجار البطيخة؟ كل عربي ساب في حيفا السفلي علي الأثر حبسوه، من راجل ومن راكب. وذكرت الصحف أسماء الوجهاء الذي حبسوا سهوًا، وآخرين.

آخرون – هؤلاء أنا. الصحف لا تسهو عني. فكيف تزعم أنك لم تسمع بي؟ إني إنسان فذ. فلا تستطيع صحيفة ذات اطلاع، وذات مصادر، وذات إعلانات، وذات ذوات، وذات قرون، أن تهملني. إن معشري يملأون البيدر والدسكرة والمخمرة. أنا الآخرون. أنا فذ!

سعيد ينتسب

إن اسمي، وهو سعيد أبو النحس المتشائل، يطابق رسمي مخلقًا منطقًا. وعائلة المتشائل عائلة عريقة نجيبة في بلادنا. يرجع نسبها إلي جارية قبرصية من حلب لم يجد تيمورلنك لرأسها مكانًا في هرم الجماجم المحزوزة، مع أن قاعدته كانت عشرين ألف ذراع وعلوه كان عشر أذرع، فأرسلها مع أحد قواده إلي بغداد لتغتسل فتنتظر عودته. فاستغفلته. (ويقال – وهذا سر عائلي – إن ذلك كان السبب في المذبحة المشهورة). وفرت مع أعرابي من عرب التويسات، اسمه أبجر، الذي قال فيه الشاعر:

يا أبجر بن أبجر يا أنتَ أنت الذي طلقت عام جُعْتَ

فطلقها حين وجدها تخونه مع الرغيف بن أبي عمرة ، من غور الجفتلك، الذي طلقها في بير السبع. وظل جدودنا يطلقون جداتنا حتي حطت بنا الرحال في بسيط من الأرض أفيح متصل بسيف البحر، قيل إنه عكاء، فإلي حيفاء علي الشاطئ المقابل من البسيط. وبقينا مطلاقين حتي قامت الدولة.

وبعد النحس الأول، في سنة 1948، تبعثر أولاد عائلتنا أيدي عرب، واستوطنوا جميع بلاد العرب التي لما يجر احتلالها. فلي ذوو قربي يعملون في بلاط آل رابع في ديوان الترجمة من الفارسية وإليها. وواحد تخصص بإشعال السجائر لعاهل آخر، وكان منا نقيب في سوريا، ومهيب في العراق، وعماد في لبنان. إلاّ أنه مات بالسكتة يوم إفلاس بنك أنترا. وأول عربي عينته حكومة إسرائيل رئيسًا علي لجنة تسويق العلت والخبيزة في الجليل الأعلي هو من أبناء عائلتنا، علي أن والدته، كما يقال، هي شركسية مطلقة. وما زال، عبثًا، يطالب بالجليل الأدني. ووالدي، رحمه الله، كانت له أياد علي الدولة قبل قيامها. وخدماته هذه يعرفها تفصيلاً صديقه الصدوق ضابط البوليس المتقاعد، الأدون سفسارشك.

ولما استشهد والدي، علي قارعة الطريق، وأنقذني الحمار، ركبنا البحر إلي عكا. فلما وجدنا أن لا خطر علينا، وأن الناس لاهون بجلودهم، نجونا بجلودنا إلي لبنان حيث بعناها واسترزقنا.

فلما لم يعد لدينا ما نبيعه، تذكرت ما أوصاني به والدي وهو يلفظ أنفاسه علي قارعة الطريق. قال: رح إلي الخواجة سفسارشك، وقل له: والدي، قبل استشهاده، سلم عليك، وقال: دبرني!

فدبرني.

سعيد يدخل إسرائيل لأول مرة

قطعت الحدود في سيارة دكتور من جيش الإنقاذ كان يغازل أختي في عيادته في وادي الصليب في حيفا. فلما رحلنا إلي صور وجدناه في استقبالنا. فلما بدأت أرتاب في الأمر تحول إلي أعز أصحابي. فاستذوقتني زوجه. فسألني: هل تحفظ السر؟ قلت: مثل نجم فوق عاشقين. قال: فأمسك لسانك إنها فروط. فأمسكت.

فلما كشفت له عن رغبتي في التسلل إلي إسرائيل، تبرع بحملي في سيارته. وقال: أفضل لك. قلت: ولك. فقال: علي بركة الله. وباركتنا الوالدة.

بلغنا ترشيحا حين كانت الشمس والأهالي تهجرها. فاستوقفنا الحرس. فأظهر الدكتور بطاقته فحيونا، وكنت مذعورًا. فضحك الدكتور وشتمهم فشتموه وضحكوا.

وبتنا في معليا حتي استيقظت قبل الفجر علي همس صادر عن سرير الدكتور إلي جانبي. فحبست أنفاسي. فتبينت صوتًا يهمس أن زوجها لا يستيقظ الساعة. فقلت: لا يمكن أن تكون هذه أختي، فأختي لا زوج لها حتي الآن. فنمت مطمئنًا.

وتغدينا في بيت والدها في أبو سنان، وكانت في ذلك الوقت أرضًا حرامًا، أي لا يطرقها سوي الجواسيس وتجار الغنم والحمير السائبة.

واكتروا لي دابة هبطت علي ظهرها إلي كفرياسيف.. وكان ذلك في صيف عام 1948. وعلي ظهر الجحش من أبو سنان إلي كفرياسيف احتفلت بصيفي الرابع والعشرين.

وأرشدوني إلي مقر الحاكم العسكري. فدخلته راكبًا علي جحش بن أتان. وكانت علي عتبته ثلاث درجات صعدتها الدابة في خيلاء.

فتدافع العسكر نحوي، مذهولين. فصحت: سفسارشك، سفسارشك! فانطلق نحوي عسكري سمين. وصرخ: أنا الحاكم العسكري، وانزل عن الحمار. قلت: أنا فلان بن فلان، ولا أنزل إلاّ علي عتبة الخواجا سفسارشك. فشتمني، فصحت: أنا طنيب علي الخواجا سفسارشك. فشتم الخواجا سفسارشك. فنزلت عن الحمار.

بحْث في أصْل المتشائل

لما نزلت عن الحمار رأيتني أطول قامة من الحاكم العسكري. فاطمأنت نفسي حين وجدتني أطول قامة منه بدون قوائم الحمار. فارتحت علي مقعد من مقاعد المدرسة التي حولوها إلي مقر الحاكم وحولوا ألواحها إلي طاولة بنغ بونغ.

شعرت بالاطمئنان وحمدته علي أنني أطول قامة من الحاكم العسكري بدون قوائم الحمار.

هذه هي شيمة عائلتنا. ولذلك سميت بعائلة المتشائل. فالمتشائل هي نحت كلمتين اختلطتا علي جميع أفراد عائلتنا منذ مطلقتنا القبرصية الأولي. وهاتان الكلمتان هما المتشائم والمتفائل. فدعينا بعائلة المتشائل. ويقال إن أول من أطلقها علينا هو تيمورلنك نفسه بعد مذبحة بغداد الثانية. وذلك لما وشوا بجدي الأكبر، أبجر بن أبجر، وأنه، وهو علي متن فرسه خارج أسوار المدينة، التفت فشاهد ألسنة اللهب، فهتف: بعدي خراب بصري!

خذني أنا مثلاً، فإنني لا أميز التشاؤم عن التفاؤل. فأسأل نفسي: من أنا؟ أمتشائم أنا أم متفائل؟

أقوم في الصباح من نومي فأحمده علي أنه لم يقبضني في المنام. فإذا أصابني مكروه في يومي أحمده علي أن الأكره منه لم يقع، فأيهما أنا: المتشائم أم المتفائل؟

ووالدتي من عائلة المتشائل أيضًا. وكان أخي البكر يعمل في ميناء حيفا. فهبت عاصفة اقتلعت الونش الذي كان يقوده وألقته معه في البحر فوق الصخور، فلموه وأعادوه إلينا إربًا إربًا، لا رأس ولا أحشاء. وكان عروسًا ابن شهره. فقعدت عروسه تولول وتندب حظها. وقعدت والدتي تبكي معها صمتًا. ثم إذا بوالدتي تستشيط وتضرب كفا بكف وتبح قائلة: (مليح أن صار هكذا وما صار غير شكل)! فما ذهل أحد سوي العروس، التي لم تكن من العائلة فلا تعي الحكم. ففقدت رشدها، وأخذت تعول في وجه والدتي: أي غير شكل يا عجوز النحس (هذا اسم والدي، رحمه الله): أي شكل بعد هذا الشكل يمكن أن يكون أسوأ منه؟

ولم يرق والدتي نزق الشباب. فأجابتها بهدوء، وكأنها تقرأ في المندل: أن (تخطفي) في حياته يا بنية – أي أن تهربي مع رجل آخر. علمًا بأن والدتي تحفظ شجرة العائلة عن ظهر قلب.

والحقيقة أنها هربت، بعد سنتين، مع رجل آخر. فكان عاقرًا. فلما سمعت الوالدة أنه عاقر، رددت لازمتها: فلماذا لا نحمده؟

فأيهم نحن: المتشائمون أم المتفائلون؟

كيف شارك سعيد في حرب الاستقلال لأول مرة

ولنعد، يا محترم، إلي مقر الحاكم العسكري الذي، ما أن شتم الأدون سفسارشك حتي نزلت عن الحمار. فسرعان ما تبين لي أن الشتم لا يدل علي استهانة الشاتم بالمشتوم، بل يدل، أحيانًا، علي الغيرة.

فما أن قعدت علي المقعد راضيًا عن أن قامتي أطول من قامة الحاكم العسكري، حتي بدون قوائم الدابة، حتي هرع هذا الأخير، أي الحاكم العسكري، إلي التلفون ورطن فيه ببعض كلام لم أفهم منه سوي اسمين ارتبطا بي فيما بعد زمنًا طويلاً: أبي النحس وسفسارشك. ثم ألقاه، وصاح في وجهي أن قم. فقمت.

قال: أنا أبو إسحق، فاتبعني. فتبعته إلي سيارة جيب أوقفوها بقرب العتبة وحماري يتمخط إلي جانبها. قال: لنركب. فاعتلي سيارته واعتليت جحشي. فزعق، فانتفضنا، فوقعت عن ظهر الحمار، فوجدتني بقربه، أي بقرب الحاكم العسكري في السيارة التي توجهت بنا غربًا في طريق ترابي بين أعواد السمسم. قلت: إلي أين؟ قال: عكا، وانكتم. فانكتمت.

وما أن مرت بضع دقائق حتي أوقف الجيب فجأة، وانطلق منه كالسهم، وقد أشرع مسدسه. ثم اخترق أعواد السمسم وكشفها ببطنه، فإذا بامرأة قروية مقرفصة ووليدها في حجرها وقد رأرأت عيناه.

فصاح: من أية قرية؟

فظلت الأم مقرفصة تطل عليه بنظرات شاخصة مع أنه كان واقفًا فوقها كالطود.

فصاح: من البروة؟

فلم تجبه بعينيها الشاخصتين.

فصوب مسدسه نحو صدغ الولد، وصاح: أجيبي أو أفرغه فيه.

فانكمشت تأهبًا للانقضاض عليه، وليكن ما يكون. ففي عروقي تجري دماء الشباب الحارة، أنا ابن الرابعة والعشرين، وحتي الصخر لا يطيق هذا المنظر. غير أني تذكرت وصية أبي وبركة والدتي. فقلت في نفسي: سأثور عليه إذا ما أطلق الرصاص. ولكنه يهددها فحسب. فبقيت منكمشًا.

وأما المرأة، فقد أجابته هذه المرة: نعم من البروة.

فصرخ: أعائدة أنت إليها؟

فأجابته: نعم عائدة.

فصرخ: ألم أنذركم أن من يعود إليها يقتل؟ ألا تفهمون النظام؟ أتحسبونها فوضي؟ قومي اجري أمامي عائدة إلي أي مكان شرقًا. وإذا رأيتك مرة ثانية علي هذا الدرب، فلن أوفرك.

فقامت المرأة، وقبضت علي يد ولدها وتوجهت شرقًا دون أن تلتفت وراءها. وسار ولدها معها دون أن يلتفت وراءه.

وهنا لاحظت أولي الظواهر الخارقة التي توالت علي فيما بعد حتي التقيت، أخيرًا، صحبي الفضائيين. فكلما ابتعدت المرأة وولدها عن مكاننا، الحاكم علي الأرض وأنا في الجيب، ازدادا طولاً حتي اختلطا بظليهما في الشمس الغاربة، فصارا أطول من سهل عكا. فظل الحاكم واقفًا ينتظر اختفاءهما، وظللت أنا قاعدًا أنكمش، حتي تساءل مذهولاً: متي يغيبان؟

إلا أن هذا السؤال لم يكن موجهًا إليّ.

والبروة هذه هي قرية الشاع الذي قال، بعد 15 سنة:

(أهنئ الجلاد منتصرًا علي عين كحيلة مرحي لفاتح قرية، مرحي لسفاح الطفولة)

فهل كان هو الولد؟ وهل ظل يمشي شرقًا بعد أن فك يده من قبضة أمه وتركها في الظل؟

لماذا أروي لك، يا معلم، هذه الحادثة التافهة؟

لعدة أسباب منها: ظاهرة نمو الأجسام كلما ابتعدت عن أنظارنا.

ومنها أنها برهان آخر علي أن اسم عائلتنا العريقة هو اسم له هيبته في قلوب رجالات الدولة. فلولا هذه الهيبة لأفرغ الحاكم مسدسه في رأسي، وقد شاهدني منكمشًا تأهبًا.

ومنها: أني شعرت، لأول مرة، أنني أكمل رسالة والدي، رحمه الله، وأخدم الدولة، بعد قيامها

علي الأقل. فلماذا لا أتبحبح مع الحاكم العسكري؟

وتبحبحت، فسألته: سيارتك هذه، من أي موديل؟

فقال: انكتم.

فانكتمت.

فشاعر البروة، السالف الذكر، قال:

(نحن أدري بالشياطين التي تجعل من طفل نبيا)

ولم يدر، إلاّ أخيرًا، بأن هذه الشياطين نفسها تجعل من طفل آخر نسيًا منسيًّا.

ورود ذِكْر (يُعاد) لأول مرة

استقبلتنا عكا، حين دخلناها، وقد التفت بعباءة الليل العباسية. فتذكرت صاحبتي (يُعاد)، التي لم تبتسم في القطار لسواي، فتسارع وجيب الفؤاد.

فعكا، التي صمدت للصليبيين أطول مما صمد غيرها من الحواضر، وردت نابليون، ولم يدخلها التتار. حافظت علي هيبتها بعد أن هرمت وشاخت وأصبح سورها محششة، ومنارها مثل قنديل جحا.. فظلت القصبة حتي بعد أن تصنعت حيفا واستشببت. وظلت مدرستها الثانوية، في الغرف الكلينية علي كتف السور الشرقي، أعلي صفوفًا من مدرسة حيفا الثانوية. فانتقلنا إلي (مدرسة الفرقة) في عكا، ذهابًا وإيابًا يوميًا في القطار. وفي القطار التقينا صاحبتي (يعاد) الحيفاوية التي كانت مثلنا تتأبط مزودتها، وتتعلم في مدرسة البنات العكية، وتعود معنا. إلاّ أنها كانت تنزوي في المقصورة الوحيدة في القطار، تدخلها وقد أسدلت إيهابها، وتخرج منها علي هذه الحال. فسارقتني النظر بعينيها الخضراوين من باب المقصورة المشقوق، فعلقتها. فنادتني ذات صباح أن أفسر لها كلمة بالإنجليزية. فلما عجزت عنها فسرتها لي، وقالت: اقعد. فصرت أقعد معها في الذهاب وفي العودة. فأحببتها حبًا جمًا. فقالت إنها أحبتني لأنني خفيف الظل وضحكتي عالية.

ولكن غيرة زميل من زملائي جعلتني أبكي بدون صوت.

فقد وشي بي إلي مدير مدرستها، الذي أحال كتابه إلي مدير مدرستنا، فاستدعي جميع طلاب حيفا القطاريين. وهاج وماج، ثم قال: حيفا عكا بحر، بينهما بحر. ما يجوز في حيفا لا يجوز في عكا. هذه مدينة محافظة منذ أيام صلاح الدين.

فتذكرت المغفور له الرحالة أبا الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الأندلسي، الشاطبي، البلنسي، الذي بات ليلتين في خان عكاوي، في زمن صلاح الدين، فكتب عنها أنها (تستعر كفرًا وطغيانًا)، وأنها (مملوءة كلها رجسًا وعذرة). وكان جدي لأبي، رحمهما الله، الذي (خطفت) امرأته الأولي، يعلمنا منذ الصغر قائلاً: فعلت ذلك لأنها من عكاء. وكان يمطها توكيدًا.

فتنطحت للمدير وصحت في وجهه همسًا: ولكنها ليست من عكاء!

فطردنا من مكتبه، وكتب إلي أهلها. فأرسلوا من ضربني في المحطة. فازددت هيامًا بها. فضربت زميلي الذي وشي بنا. فوقعنا من القطار علي رمل الشاطئ فلم نتأذ. وعدنا إلي حيفا مشيًا علي الأقدام بعد أن اغتسلنا في البحر. وأطعمنا الغوارنة خبز صاج بالزيت وبالملح وسرقوا المزودتين.. فرجعنا أعز الصحاب حتي يومنا هذا.

وأما (يعاد)، التي لم تعد إلي القطار منذ كتاب المدير إلي أهلها، فلم أعثر لها علي أثر. ولكن قلبي ظل مجروحًا بحبها.

فلما دخلنا عمارة الشرطة، علي الشاطئ الغربي، وسلمني الحاكم إلي أحد ضباطها، أمرني: عد في الصباح لأنقلك إلي حيفا. ثم استدرك: فأين ستقضي ليلتك هنا؟ قلت: (يعاد)! فصاح الضابط: هل أنت أطرش؟ وأعاد علي مسامعي تعليماته. قلت: لا أعرف أحدًا هنا سوي مدير المدرسة، فلان الفلاني.

فتشاورا، ثم قال الحاكم للضابط: احمله إلي جامع الجزار. فحملني بجيبه. حتي إذا وصلنا إلي سبيل الطاسات أوقف سيارته فترجلنا وقرع باب المسجد بمطرقة الباب التاريخية. فسمعنا لغطا ثم انحبس.. ثم سمعنا بكاء طفل ثم انكتم، فوقع أقدام تتجرجر. ثم انفتح الباب عن شيخ هرم، نحيل، في ثوب هدم، وهو يؤهل. فأمر الضابط: هذا واحد آخر عليه أن يثبت وجوده في المركز صباحًا. فقال الشيخ: ادخل يا ابني. فدخلت. فلما أمعنت النظر في وجهه عرفت فيه مدير المدرسة. فهتفت: آه يا معلمي، إن والدي رحمه الله، قد أوصاك بي خيرًا. فقال: إن خيري كثير يا ولدي، ادخل فَتَره!!

جلسة ليلية عجيبة في فناء جامع الجزار

صفق معلمي براحتيه ثلاثًا، ثم قال مخاطبًا الظلام في فناء المسجد: عودوا إلي شؤونكم يا قوم، فهذا واحد منا.

فإذا باللغط المحبوس ينفلت. وتنشال الأكف عن أفواه الأطفال المنكتمة. وأري أشباحًا تتقدم نحونا من غرف المدرسة الأحمدية التي تحيط بالفناء الرحب من أطرافه الثلاثة، الشرقي والشمالي والغربي، فتتحلقنا، وتقرفص بعد أن تطرح السلام، فعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فتستفهم عني.

قلت: إني عائد من لبنان.

فإذا بهرج وبمرج.

فصاح معلمي: هذا ولدنا يا جماعة. فإذا عاد، عاد الآخرون.

فسأل سائل: هل عدت متسللاً؟

فلم أشأ أن أحدثهم عن الدكتور عشيق أختي، ولا عن الدابة، ولا عن الأدون سفسارشك، فقلت: نعم.

– فسيطردونك الليلة.

قلت: إن لوالدي، الذي أعطاكم عمره، صديقًا من كبارهم، اسمه الأدون سفسارشك.

فعاد الصخب. وعاد معلمي يطمئنهم: إن هو إلاّ صبي لم يبلغ الحلم. مع أن الليلة هي ليلة ميلادي الرابع والعشرين. وكنت في حلم حقًا.

وشكرت معلمي علي أنه لم يدَّع أنني صبيه كي ينقذني من غضبهم، الذي لم أدرك له سببًا.

حتي أنسوا بي، فأمطروني بالأسئلة عن شظايا أهلهم الذين التجأوا إلي لبنان.

– نحن من الكويكات، التي هدموها وشردوا أهلها، فهل التقيت أحدًا من الكويكات؟

فأعجبني ترديد الكاف في الكويكات. فعاجلت ضحكتي قبل أن تنطلق، لولا صوت امرأة جاء

من وراء المزولة غربًا:

– البنت ليست نائمة يا شكرية، البنت ميتة يا شكرية.

ثم تناهت إلينا صرخة مخنوقة، فاختنقت أنفاس الجمع حتي انحبست الصرخة. فعادوا إلي استجوابي. فقلت: لا.

– أنا من المنشية. لم يبق فيها حجر علي حجر، سوي القبور. فهل تعرف أحدًا من المنشية؟

– لا.

– نحن هنا من عمقا، ولقد حرثوها، ودلقوا زيتها. فهل تعرف أحدًا من عمقا؟

– لا.

– نحن هنا من البروة. لقد طردونا وهدموها، هل تعرف أحدًا من البروة؟

– أعرف امرأة كانت مختبئة مع طفلها بين أعواد السمسم.

فسمعت أصواتًا كثيرة تحدس أيهن تكون هذه المرأة، فعدوا أكثر من عشرين أم فلان حتي صاح كهل من بينهم: كفوا! إنها أم البروة، فحسبها وحسبنا. فكفوا.

ثم عادت الأصوات تنتسب في عناد، مع أن قراها، كما فهمت، قد درستها العسكر:

– نحن من الرويس.

– نحن من الحدثة.

– نحن من الدامون.

– نحن من المزرعة.

– نحن من شعب.

– نحن من ميعار.

– نحن من وعرة السريس.

– نحن من الزيب.

– نحن من البصة.

– نحن من الكابري.

– نحن من أقرت.

ولا تنتظر مني يا محترم، بعد هذا الوقت الطويل أن أتذكر جميع القري الدارسة، التي انتسبت إليها الأشباح في باحة جامع الجزار. هذا مع العلم بأننا نحن، أولاد حيفا، كنا نعرف عن قري سكوتلندة أكثر مما كنا نعرف عن قري الجليل. فأكثر هذه القري لم أسمع به إلاّ تلك الليلة.

لا تلمني، يا محترم، بل لم أصحابك. ألم يكتب شاعركم الجليلي:

(سأحفر رقم كل قسيمة

من أرضنا سلبت

وموقع قريتي، وحدودها

وبيوت أهليها التي نسفت

وأشجاري التي اقتلعت

وكل زهيرة برية سحقت

لكي أذكر

سأبقي دائمًا أحفر

جميع فصول مأساتي

وكل مراحل النكبة

من الحبة

إلي القبة

علي زيتونة

في ساحة الدار)؟

فإلي متي يظل يحفر وتظل سنُو النسيان تعبر وتمحو؟ ومتي سيقرأ لنا المكتوب علي الزيتونة؟ وهل بقيت زيتونة في ساحة الدار؟

فلما لم يتلقوا مني أجوبة شافية، وأدركوا أنني لا أعرف من عباد الله سوي أهلي والأدون سفسارشك، انفضوا من حولي وعادوا إلي زواياهم. فبقيت مع معلمي.

الإشارة الأولي من الفضاء السحيق

فلما انفض السامر، وبقيت وحدي مع معلمي، الذي أنقذني من غضب الأشباح، شعرت بالامتنان، وبرغبتي في التعبير عنه. كان معلمي هذا، كما تذكر يا محترم، هو السبب في انقطاع صلتي بـــ (يعاد)، ذات العينين الخضراوين. ولكن قلبي كبير. فقلت له: إنني مسرور بأن أبيت في كنفه ليلتي الأولي في هذه الدولة الجديدة. فهو، بعد الأدون سفسارشك، وصية أبي. فماذا تفعل هنا يا معلمي؟

قال: أجمع الشمل.

ثم قال: والحقيقة، يا ولدي أنهم ليسوا أسوأ من غيرهم في التاريخ.

فهززت رأسي استحسانًا.

فقال: حقًا إنهم هدموا القري التي ذكرها القوم، وشردوا أهلها. ولكن، يا ولدي، إن في قلوبهم لرأفة لم يحظ بها أجدادنا من الغزاة الذين سبقوهم.

خذ لك عكا هذه مثلاً. فحين افتتحها الصليبيون في سنة 1104، بعد حصار دام ثلاثة أسابيع، ذبحوا أهلها ونهبوا أموالهم.

وبقيت في أيديهم 83 عامًا حتي حررها صلاح الدين بعد وقعة حطين التي علمتكم عنها في المدرسة.

ثم عاد الصليبيون فحاصروا عكا مدة سنتين كاملتين، من آب 1189 حتي تموز 1191، فأكره الجوع أهلها علي الاستسلام بشروط قاسية. فلما لم يستطيعوا إيفاءها أمر ملكهم ريتشارد ليون هارت (يعني قلب الأسد) بذبح 2600 رأس من رؤوس الرهائن الآدمية. وظلت عكا في أيديهم قرنًا كاملاً، مئة عام من الزمن يا بني، حتي حررها القائد المملوكي قلاوون، سنة 1291. وكان لقبه العسكري هو (الألفي)، تقديرًا للثمن الباهظ الذي دفع فيه، وهو ألف دينار.

فأردت أن أثبت له أنني لا أزال من طلابه النجباء، فسألته:

– فهل رتبة (الألوف) من جنرالاتهم الآن، يا معلمي، منحوتة من هذا المعني؟

– حاش وكلا يا بني. بل تعود إلي قائد الألف في التوراة. هؤلاء ليسوا مماليك، وليسوا

صليبيين، بل عائدون إلي وطنهم بعد غيبة ألفي سنة.

– ما أقوي ذاكرتهم!

– علي كل حال، يا بني، ظل الحديث يجري، منذ ألفي سنة، علي الألوف، قادة ألفيون، أو ألوفيون، وقتلي بالألوف. ليس هناك علي الأرض أقدس من دم الإنسان، يا بني، ولذلك سميت بلادنا بالمقدسة.

– ومدينتي حيفا، أيضًا، مقدسة؟

– كل مكان في بلادنا قد تقدس بدماء المذبوحين، ويظل يتقدس يا بني. ومدينتك حيفا لا تختلف عن بقية مدننا المقدسة. فبعد أن اكتسح الصليبيون مدينة القدس المقدسة، عليها السلام، في سنة 10، وكتب ملكهم جوتفريد في رسالته إلي البابا متباهيًا بأن (أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل كانت تري في ساحات المدينة وطرقاتها)، وبأنه في مسجد عمر، رضي الله عنه، حيث التجأ المسلمون (وصلت الدماء إلي ركب الخيل)، ذهبوا وافتتحوا حيفا بعد أن حاصرها أسطول البندقية شهرًا. فذبحوا أهليها عن بكرة أبيهم، رجالاً ونساء وأولادًا.

فحيفا ليست مدينة جديدة يا بني، إلاّ أنه بعد كل مذبحة، لم يبق فيها من يخبر الذرية بأصلها.

– فلماذا لم تعلمونا عن هذه القدسية يا معلمي؟

– من حق الإنجليز أن يتباهوا بتاريخهم، يا ولدي. وخصوصًا بملكهم العظيم ليون هارت. وبدون أن نعلمكم هذه الأمور شاركوا هم أيضًا، بدمائنا، في عملية تقديس بلادنا. والتاريخ يا بني، لا يصح في عيون الغزاة إلا بتزوير التاريخ.

– فهل سيسمحون لنا، يا معلمي، بدراسة هذا التاريخ بعد أن جلا الغزاة ونالت البلاد استقلالها؟

– انتظر فتر.

– وهل يدخلون جامع الجزار كما دخل الصليبيون مسجد عمر؟

– حاش وكلا يا بني، بل يقرعون الباب فنخرج نحن إليهم. إنهم لا يدنسون حرمة دور العبادة، بل إن لهم في خارجها، متسعًا لهذا الأمر.

وما أن أكمل معلمي كلامه المطمئن هذا، حتي سمعنا قرعًا شديدًا علي الباب. فقال معلمي: لقد جاءوا.

فقلت: ربما جاء الأدون سفسارشك من حيفا ليستفسر عن حالي.

ولكن معلمي كان قد بلغ الباب. وكانت الأشباح قد استيقظت، وأخذت تحوم في فناء الجامع علي غير هدي.

وحبسنا أنفاسنا ونحن نستمع إلي الأمر بأن الجيش قرر أن يعيد اللاجئين، الملتجئين في كنف المسجد، إلي قراهم الأصلية حالاً.

فهمس شبح إلي جانبي: فلماذا لا ينتظرون حتي الصباح؟

فأدهشني هذا السؤال، وقلت: خير البر عاجله.

فصاح الآمر: سعيد أبو النحس يبقي وحده مع المعلم، وجميع الآخرين ليخرجوا!

فتحققت كلام معلمي أنهم ليسوا أسوأ من الملك ليون هارت.

وانسلت شكرية، التي ماتت ابنتها، من الباب الشرقي وهي تحمل طفلتها علي يديها. وقبل أن تغيب في السوق العتم سألتها: إلي أين؟ قالت: في الصباح ادفنها في عكا وأتوكل.

وانسل آخرون من الباب الجنوبي ليضيعوا في أزقة عكا القديمة. فسألت: لماذا؟ فقالوا: ما عندنا أدون سفسارشك، والذي هدم قرانا لا يعيدنا إليها.

وأما الباقون فحملوا خرقهم، وأولادهم، وخرجوا من الباب الشمالي الكبير حيث حملوا في سيارات ضخمة حملتهم، كما أخبرني معلمي فيما بعد، إلي الحدود، حيث ألقتهم شمالاً، وتوكلت.

فعاد معلمي واتكأ حيث كنت متكئًا علي المزولة وقد زاولني القلق. وقال: قم الآن ونم، لقد فرغت الليلة جعبتي.

ولكنني لم أنم.

ففي تلك الليلة، في ساعة الفجر الكاذب، شاهدت الإشارة الأولي من الفضاء السحيق.

سعيد يفشي بسرّ عجيب من أسرار العائلة

أرقت، لا لأنني كنت مضطربًا، بل لأنني كنت مبهورًا بطالعي الحسن. فها أنا ذا أعود إلي أرض الوطن متسللاً، فلا ينالني سوء، مع أن شعبي كله يهيم علي وجهه مشردًا، فإذا لم يهم، هيموه.

إلاّ أنا. أتسلل في سيارة الدكتور عشيق أختي، فيبقي عفاف أختي مصونًا بفضل زوجة مضيفنا في معليا، فأنتقل من السيارة إلي الدابة، ومن الدابة إلي الجيب. وفي الطريق إلي عكا أنجو من الموت الأكيد بفضل انكماشي الذي جاء في وقته. فألتجئ إلي جامع الجزار في كنف معلمي الذي عفوت عنه، فيأتي العسكر ويقذفون بالأشباح، وبأطفال الأشباح، إلي ما وراء الخطوط، سوي سعيد أبي النحس المتشائل، فكيف لا أشعر بأن هذه الليلة هي ليلة سعدي؟

لا يمكن أن يكون الأدون سفسارشك هو سبب كل هذا السعد. هل هو خاتم شبيك لبيك؟ أو هو قنديل علاء الدين؟ إن في الأمر لسرًا خارجًا عن قدرة البشر.

فقررت أن أخرج لأكشفه. وقبل أن أخرج. عفوًا يا أستاذ. بل قبل أن أروي لك ما جري لي بعد خروجي، من الضروري أن أعرفك بخصلة أصيلة أخري من خصال عائلتنا العريقة، بالإضافة إلي التشاؤل، وإلي أننا مطلاقون.

كان والدي، حين استشهد، يستشف الأرض تحته. فلم يكشف الكمين الذي كمن له وأودي بحياته. ووالده، من قبله، شج رأسه بحجر الطاحون لأنه كان ينظر في الأرض بين قدميه، فلم يقم بعدها.

فهذه هي شيمة عائلتنا النجيبة، أن نظل نبحث تحت أقدامنا عن مال سقط سهوًا من صرة عابر سبيل لعلنا نهتدي إلي كنز يبدل حالنا الرتيبة تبديلاً.

وثق، يا محترم، بأنه ما من عجوز، في طول بلاد العرب وعرضها، يسبق رأسها بقية جسمها إلي القبر، وتدب مقوسة مثل رقم 8 ، إلاّ ولها صلة قربي بنا. وما من شاب ينصب الفخاخ لالتقاط نشرات الأخبار الإذاعية، لا يبقي محطة ولا يذر، مثل صياد السمك الذي يلقي بصنانيره لعل السمكة الذهبية تعلق بإحداها، إلاّ ويكون ابن عم أو ابن خال.

ولكن، يجب ألاّ تفهم من هذا الكلام أن جدودنا لم ينتهوا إلاّ برؤوس مهشمة. بل لقينا أموالاً ضائعة كثيرة، جيلاً بعد جيل، فلم تبدل شيئًا من حياتنا الرتيبة.

ومن أسرار العائلة أنه في زمن خروج الأتراك ودخول الإنجليز، خرج عمي لجدي من بيته في القرية الفلانية – نحن، مثل الماسون، لا يمكن أن نفشي أسرارنا العائلية – وكان ينظر إلي أسفل كعادتنا. فاصطدم رأسه بحجر في بيت خراب. وكانت جمجمته صلبة. فتدحرج الحجر من مكانه. فانكشفت أمامه هوة تغضنت في سفحها درجات هبط عليها، فإذا بظلام خفاش. فقدح زناد فكره، فقدح زناده، فاستضاء. فرأي لحودًا رخامية أخذ يفتحها فإذا فيها جماجم وبقية عظام، وغاليات ذهبية دسها في دكة سرواله، حتي فتح لحدًا أكبر من الآخرين، فإذا فيه، مع الجمجمة التي كانت، كما قيل، أصغر حجمًا من بقية الجماجم، تمثال من الذهب الخالص للخان مانجو، أكبر إخوة هولاكو، الذي صرعته الدوزنطاريا وهو يغزو الصين. فنقل جثمانه الضخم إلي عاصمة ملكه علي حمارين. ولم يكونوا قد بلغوا في ذلك الوقت ما بلغناه من علم، فلم يهتدوا إلي فرق الكشافة. ولم تكن لديهم مدارس يصفون أولادها علي الجانبين، كما فعلوا بنا في حيفا في الثلاثينيات، حين صفونا علي جانبي شارع الناصرة أمام عامود فيصل حاليًا ، لنشيع جثمان الملك فيصل الأول، الذي مات في سويسرة بغير الدوزنطاريا.

ولذلك قرروا أن يقتلوا كل من تلقاه الجنازة في طريقها، احترامًا لذكري خان الأول، كما قتلنا في الثلاثينيات ثلاثة أيام دراسة احترامًا للملك الأول. فأزهقوا في طريق هذه الجنازة، بحسب ما سجله المؤرخون، عشرين ألف روح وروحًا واحدة، هي روح عمي لجدي الذي لفظ أنفاسه الأخيرة وهو متشبث بصنم الخان مانجو بعد سبعة قرون.

تبين عمي لجدي، وهو في القاع، أنه أخيرًا لقي الكنز الذي ظلت العائلة تبحث عنه عبر الأجيال، فدهمته الفرحة، فأضاع فتيله، فلم يجد الباب. فأخذ ينادي علي زوجه مقدرًا أن بيته، الذي بجوار الخربة، هو الآن فوقه. وروي لها كل ما أسلفت ذكره. فسمعت صوته قادمًا من الأعماق. إلاّ أنه استحلفها بقبر والديها ألاّ تخبر أحدًا، حتي أخاه. بل أن تنزل إليه من فتحة الهوة في حائط الخربة المهجورة. فخرجت. فلم تجد أي بيت مهجور في القرية. فعادت إلي البيت وألصقت جبينها بالأرض ونادت عليه. فشتمها علي نزقها، وأمرها بالتزام الصمت حتي الصباح. فالصباح رباح. وسيجد طريقه لوحده.

فلما لم يعد، أخبرت أهله بالأمر. فقاموا يفتشون، فلم يجدوا أية خربة.

ولم يشاؤوا أن يبلغوا الحكومة حتي لا تضع يدها علي الكنز فيضيع الكنز عليهم. وظلوا يبحثون عنه وعن صنم مانجو حتي قامت الدولة. أما زوجه، فلم تمت إلاّ بعد أن وجدت غيره، ولم يكن عاقرًا.

وأما أنا، فقررت ألاّ أموت مقوس الظهر كأسلافي. ومنذ نعومة أظفاري أقلعت عن البحث بين قدمي عن كنز للخلاص. بل رحت أبحث عنه فيما فوق، في هذا الفضاء الذي لا نهاية له، في هذا

(البحر بلا ساحل) كما وصفه محيي الدين بن عربي.

فقد قيض لنا، ونحن في المدرسة الابتدائية، أستاذ مغضوب عليه مولع بعلم الفلك، حكي لنا حكايات العباس بن فرناس وجول فيرن، وتعصب للفلكيين العرب القدماء، من ابن رشد، الذي كان أول من درس بقع الشمس حتي البتاني الحراني الذي كان أول من استنتج أن معادلة الزمن تتغير تغيرًا بطيئًا مع مر الأجيال، وأول من توصل بكثير من الدقة إلي تصحيح طول السنة الشمسية. فإذا كانت مدتها الحقيقية، أعلن المغضوب عليه، هي 365 يومًا و5 ساعات و48 دقيقة و46 ثانية، فإن البتاني حددها بـ 365 يومًا و5 ساعات و46 دقيقة و32 ثانية، أي بفارق دقيقتين وأربع ثوان. فقد كان العرب، حين يفكرون – قال المغضوب عليه – أسرع حركة حتي من دوران الأرض حول شمسها، فأصبحوا الآن يتخلون عن ملكة التفكير لغيرهم.

وكان المغضوب عليه يبقينا في الصف بعد الدوام، ويغلق النوافذ، ثم يحكي لنا متباهيًا عن أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني، الذي استنبط كروية الأرض وأن جميع الأجسام تنجذب نحوها قبل نيوتن بثمانمئة عام، وخصوصًا عن الحسن بن الحسن بن الهيثم الذي كان، وهنا يخفت صوت المغضوب عليه فيصبح همسًا ثوريًا، أول عالم انتهج الأسلوب العلمي المادي الحديث بضرورة الاعتماد علي الواقع الموجود والأخذ بالاستقراء والمقارنة. فقد كان العرب حين يفكرون – قال الأستاذ المغضوب عليه – يعملون ثم يحلمون، لا كما يفعلون الآن، يحلمون ثم يظلون يحلمون.

ومنذ ذلك الحين وأنا أحلم بأن يذكرني التاريخ حين يذكر فلكيينا الأقدمين. وبقيت أحلم علي هذا المنوال حتي جندلوا والدي، رحمه الله، وقامت دولة إسرائيل.

وكان أستاذنا المغضوب عليه يؤكد لنا أن العرب هم أول من استعمل الصفر للغاية نفسها التي نستعمله لها الآن، ثم قسم الواحد علي صفر فأثبت لنا أن هذا الفضاء لا نهاية له، والكون فيه:

يسبح في بحر بلا ساحل في حندس الغيب وظلمائه

فلا بد أن تكون فيه عوالم مثل عالمنا، وأرقي منا، فلا بد أن يأتوا إلينا قبل أن نذهب إليهم.

لقد خرج الأتراك وأتي إلينا الإنجليز، فلم يتزحزح أستاذنا المغضوب عليه عن نظريته هذه. فكيف أتزحزح عنها، أنا الشاب وعمري كله أمامي، بعد أن خرج الإنجليز وأتتنا إسرائيل؟

منذ ذلك الوقت وأنا أنظر إلي أعلي وأنتظر مجيئهم، فإما أن يبدلوا حياتي الرتيبة المملة تبديلاً، أو أن يأخذوني معهم.

وهل هناك من بديل؟

لذلك خرجت من فناء جامع الجزار، في ساعة الفجر الكاذب، ورحت أجوب طرقات عكا المظلمة وأنا أتطلع إلي فوق.

كيف لم يمُتْ سعيد شهيدًا في وادٍ علي الحدود اللبنانية

فلما كنت مطمئنًا علي قدري، ومتحققًا أن الأسوأ لن يصيبني، هبطت الهوينا درجات الباب الشمالي، فملأت طاسة ماء من سبيل الطاسات، فارتويت وترحمت علي أحمد الجزار. ثم سرت في سبيلي.

فإذا أمامي الطريق العريض حيث المسار شمالاً، إلي رأس الناقورة، فلبنان. فخفضت رأسي خجلاً من غزالة. وتحولت عنه.

كنا ثلاثة شبان زملاء صف واحد. فقررنا في نهاية الإضراب الكبير (1939) أن نعبر الحدود إلي لبنان فنزور دار القيادة في بيروت نطلب سلاحًا.

فركبنا سيارة الأجرة حتي قبيل رأس الناقورة. ثم انحرفنا يمينًا سيرًا علي الأقدام بين كروم العنب. فهبطنا واديًا عميقًا، فأظلمت السماء. فلما أخذنا نصعد علي كتفه المقابل، أنهكنا التعب وألهبنا العطش. فاستحثني الآخران، فبكيت. فخلفاني وراءهما بعدما خيراني بين الاستمرار في الصعود أو أن أموت شهيدًا. فاخترت الأمر الأول. ولم ألحق بهما إلاّ بعد أن كانا قد ارتويا من قطوف الدوالي الدانية. فرحت أروي غليلي، فلم ينتظراني.

وإذا بفتاة في مثل عمري، تنادي والدها: هذا شاب مجاهد من فلسطين. فيجيبها الفلاح من بعيد: اسقيه وأطعميه. فنتجاذب أطراف الحديث. فأقع في حبها. فتقول إن اسمها غزالة، وإنني غزالها. فقد كنت خلب بنات.

فأعدها بأن أعود إليها بعد أسبوع، ومعي السلاح والذخيرة، فألتقيها تحت هذه الدالية.

فقالت إنها ستخبر والدها بالأمر، فلن يمانع بأن يخطبها شاب حلو من فلسطين.

فأنحني عليها كي أقبلها. فتنفر غزالة ضاحكة وهي تقول: عد أولاً من بيروت. فلا أتبين سبب صدها. ولكنني أسرع كي ألحق برفيقي.

فأراهما أمامي علي طريق الأسفلت تحيط بهما جماعة من شرطة الحدود اللبنانية. فقلت في نفسي: مليح أنني تأخرت عنهما، وأنني علقت غزالة.

فرأيت رجال الشرطة وهم ينحرفون بهما عن طريق الأسفلت، يسارًا، وينزلون بهما إلي معسكر علي الشاطئ، فيغيبون فيه.

فسرت في الطريق نفسها مبتعدًا عنهم. فلم يلحظوني. قلت: نجوت. ولكن، أين أسير؟ لا مال عندي ولا عنوان. فكيف أتدبر أمري في بيروت؟

قلت في نفسي: هذا أسوأ من الحبس. فعلي أن أعود إليهما، فالحبس أقل سوءًا.

فعدت إليهم. فسألني ضابطهم: ومن أنت؟ قلت: ثالثهم. قال: فلماذا سلمتنا نفسك؟ قلت: لا مال ولا عنوان.

– فأين مالكم؟

قلنا: لدي كبيرنا.

وكنا جمعنا لديه عشرين جنيهًا، مالاً صامتًا، أخذ العسكر نصفه وشتمونا. وأما النصف الآخر فأبقوه مع كبيرنا، فأنفقناه فيما وراء البنك في بيروت. وعدنا علي الطريق نفسها. ولكننا لم نحد عنها نحو كروم الدوالي، فقد كان الضابط اكتفي بالجنيهات العشرة ذهابًا وإيابًا. فلما التقانا عائدين حيانا وسأل: أين السلاح أيها المجاهدون؟ أجاب كبيرنا: سلاحنا العلم، وما معنا شروي نقير. فلم يشأ الضابط أن يقتسمها. بل صفع كبيرنا علي قفاه وصاح: اعبروا! فطرنا هاربين نحو حدودنا، وكبيرنا يقول: العلم بالشيء ولا الجهل به.

فقلت: مليح أن صار هكذا، ولم يصر غير شكل. فصفعاني. فبكيت.

ولكنني كنت أبكي علي غزالة التي ضاع غزالها في بيروت. وتبينت سبب صدها.

وبقيت، وأنا في صور فيما بعد لاجئًا، أتوق إلي زيارة الدالية علي الحدود، حتي سمعت الدكتور عشيق أختي، يومًا يقول: أصبح الفلسطينيون لاجئين تنفر البنات منهم. فتحولت نحو اللاجئات. فاللاجئات للاجئين. فوجدتهن، علي غير حالتنا، مشتهيات. فانشغلن عنا. فعدت إلي دولة إسرائيل وأنا عطشان.

كيف أنقذ الفجر الصادق سعيدًا من الضياع في دياميس عكا

وهكذا، يا محترم، تحولت عن طريق بيروت يسارًا، فدخلت في أزقة عكا، ودرت حول المسجد حتي حارة الخرابة. فانقضي الفجر الكاذب واشتد سواد الليل. فأخذت أتلمس طريقي وأتعثر، حتي رأيت ضوءًا في جهة البحر غربًا يغاضن بعينه مغاضنة متناسقة كأنما يستحثني إليه ويدعوني، مثل عين أستاذ العربية اليسري، المصابة بداء الغضن العصبي. فلما لحظتها أول مرة حسبته يدعوني إلي اللوح. فقمت إلي اللوح. فصاح: عد إلي مكانك يا لوح! فعدت. فظلت عينه اليسري تغضن. فحسبت أنني فهمت مأربه. فلما تلا علينا النشيد: (فلسطين بلادي، هيا يا أولادي)، وغضن بعينه اليسري، ضحكت قبل أن يتم البيت. فتوقف مذهولاً.. فسمعت لهاث الطلبة المذعورين. فنزل علي ضربًا بالمؤشر حتي تحطم. ثم حكم عليّ بأن أقعد بعد الدوام أنسخ قصيدة امرئ القيس:

سما لك شوق بعدما كان أقصرا وحلت سليمي بطن ظبي فعرعرا

حتي البيتين:

بكي صاحبي لما رأي الدرب دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكًا أو نموت فنعذرا

عشرين مرة!

ومنذ ذلك الحين تحققت عاقبة الاستهزاء، فحمدت معلمي علي ما أصاب عينه اليسري من غضن عصبي. وقلت في نفسي: مليح أن تحطم مؤشره علي بدني.

ولكنني أيقنت، وأنا أرقب الضوء المغضن، المنبعث من ناحية الغرب، أنه ليس عين معلمي اليسري. ذلك لأن أشباح المسجد كانت أخبرتني بأن معلمي هذا استشهد وهو ينقل متفجرات من حيفا إلي عكا في الأسبوع نفسه الذي قضي فيه الجيش البريطاني علي الثوار في موقع المصرارة في القدس، وفي القسطل علي طلعة القدس، قبل زحف الجيش العربي، بقيادة أبو حنيك، جلوب باشا، علي تلك المناطق من فلسطين التي تقرر إخلاؤها من العرب، رحمه الله.

لذلك توجهت نحو الضوء المغضن وأنا متحقق أنها دعوة سماوية، حتي أشرفت علي البحر، فرأيت أن منارة عكا إلي يساري، هي التي كانت عينها تغضن، وتدعوني.

فاستهواني هذا الضوء الذي لم ينطفئ، بعد أن انطفأت بقية الأضواء في عكا المحتشمة صبرًا.

ورحت أتقدم في اتجاه المنارة علي درب خاو، وقد هدأ البحر، وانكفأ الموج، سوي مداعبة هينة مع سيقان الصخر الرابض أمام سور أحمد متأهبًا لالتقاط قبعة نابليونية أخري.

نعم، يا محترم. فإذا ما انفك الآدميون يربضون هذه الربضة، فكيف لا يفعلها صخر عكاء؟ ولقد ظل العكيون يرددون، استخفافًا: يا خوف عكا من هدير البحر! حتي أثبت جيرانهم الحيافنة، وهم يهرعون إليهم، عبر البحر المائج، أنهم أشد استخفافًا بالبحر منهم.

حتي تناهي إليّ صوت فجائي دون ما مفاجأة، ينادي:

يا سعيد، يا سعيد! فاستحوذني شعور الذي يسترق النظر من ثقب المفتاح علي عذراء في خدرها. فأردت أن أعود القهقري استحياء لولا أنه عاد وناديي: هلم!

قلت: ها أنا ذا

قال: اقترب!

فإذا بهيئة رجل طويل القامة، ينبثق مع الضوء من صخر المنارة، فينتشر مع ضوئها ويختفي باختفائه، كأنما هو مغاضنة عين المنارة. وقد التف بعباءة زرقاء ذات زبد أبيض، مثل قنديل البحر. وهو يتقدم نحوي وأنا أتقدم نحوه حتي التقينا في منتصف الفسحة بين بقية السور يمينًا وبقية السور يسارًا علي أرض حارة الفاخورة.

فلم أر من وجهه سوي تجاعيد أشبه بصفحة البحر حين تلفحه نسمة شرقية.

فألقي في روعي أن في التجاعيد جمالاً مثلما يكون الجمال في نضارة الصبا. ولولا رهبة الحلكة لأكببت عليه ألثم خده.

وسوي عينين واسعتين، غؤورين، علي حور أنيس، يعمق غورهما كلما اكتنفهما الظلام، ثم تطفوان كلما انعكس الضوء عليهما، كأنما الحدثان، الليل والنهار، يتعاقبان فيهما في لحظة متكررة.

وسوي جبين عريض سرعان ما تحققت أن ما يختفي عني منه أعرض مما طاق بصري أن يلحظه لأول وهلة. وفيما بعد، حين وقفت أول مرة في حياتي أمام ناطحة سحاب، وأنا لاه، فانتبهت علي أنني أصعد البصر في بناء شامخ فلا أري، للوهلة الأولي، جميع علوه الشامخ، تذكرت جبين شيخ المنارة.

فمد يده إليّ. فصافحتها. فشعرت بالراحة. فلم أسحب راحتي. وقلت في نفسي: إن في راحته لأسرارًا.

قال: ألم تكن تبحث عني؟

قلت: طول العمر يا ذا المهابة. فهل جئتم؟

قال: نحن هنا، نحن هنا، حتي تجيئوا إلينا.

قلت، وما زالت راحتي في راحته: كنت حسبت أن المصافحة شيمة همجية.

فتبسم حتي صفت صفحة خده من تجاعيد البحر، ثم قال: ونحن حسبنا أنكم، لما أخذتم هذه الخصلة، عبرتم علي نصف الطريق إلينا. إن أول إنسان صفق كفا بكف استحسانًا نقشنا اسمه علي لوحة الخالدين من قبل سلامة وبتهوفن وسيد درويش. ونراه نبيكم الأول. ويخجلنا أن أكثركم ما زال يبخل علي فنان، أو علي حادي ركب، بهذا الثمن. اثنان من أهل الأرض صدرنا بهما لوحتنا: أول من أشعل نارًا، وأول من صافح أخاه. وكانا أول من تصافح. أبق راحتك في راحتي واسترح!

ففعلت.

قال: فماذا تريد يا سعيد؟

فهتفت: أن تخلصني.

قال: ممن؟

فسحبت كفي من كفه فزعا. وحبست لساني قبل أن يزل فيما لا تحمد عقباه. كان أبي رحمه الله، قد علمنا أن الناس يأكلون الناس، فحاش أن نثق بمن حولنا من الناس. إنما علينا أن نسيء الظن بكل الناس، حتي ولو كانوا إخوتك من بطن أمك ومن ظهر أبيك. فإذا لم يأكلوك، فقد كانوا يستطيعون أن يأكلوك. ووالدي، رحمه الله، ظل يأكل الناس حتي أكلوه.

فأمسكت لساني، حرصًا، وقلت في نفسي: يكون الحاكم العسكري أرسله ليختبرني؟ وقلت: شكرًا يا ذا المهابة، فأنا أكاد ألاّ أعرفك. وهنأت نفسي علي هذه اليقظة.

قال: اتبعني!

فقلت في نفسي: يكون لا يزال يختبرني؟ فتبعته.

فدخل بي تحت قنطرة إلي يمين السجن. فساحة مسجد الرمل. ثم دار بي حول جامع الجزار.. فإذا بقبو غصنا فيه، فإذا نحن في دياميس عكا، وقد جعل نور عينيه كشافًا أمامنا.

حتي دخلنا في بهو رحب، رطب، قد انكفأت أجنابه عن مصاطب افترشنا إحداها.

فقال: كان من سبقكم يبني فوق من سبقهم، حتي جاء جيل الأثريين، يحفرون من تحت ويهدمون من فوق. فإذا سرتم علي هذا المنوال ستبلغون الدناصير

قلت: فما هذا المكان يا ذا المهابة؟

قال: هذا بهو التجار من جنوا. وفيه كانوا يبيتون، ويتقايضون، ويتقمرون، ويتقامرون، ويلدون، ويولدون، ويُدْفنون ويَدْفِنون.

قلت: فلماذا أثخنوا الأرض بهذه الدياميس، يا ذا المهابة؟

قال: ليستشروا وليكفوا شر الأهالي، فوق، عنهم.

قلت: ولكن الدياميس لم تنقذهم.

قال: ولكنهم لم يحسبوا ذلك.

قلت: ما اسمك يا ذا المهابة؟

فرمقني بعينين رأيت في سوادهما الواسع سعيدين ينظران إليّ في تعجب: سعيدًا ملحاحًا، وسعيدًا خائفًا.

ثم قال وهو يبتسم: عندكم يخرج الإنسان علي الناس باسمه. أما نحن، عندكم، فأنتم الذين تطلقون علينا الأسماء التي تستريحون عليها. سمّني المهدي، الذي استراح أجدادك عليه، أو الإمام، أو المنقذ.

فقال أحد السعيدين، وكان السعيد الآخر ينكمش ويتضاءل: فأنقذنا، يا ذا المهابة!

فحدجني بنظره حتي تكسرت أمواج الغضب علي السعيدين في عينيه فتلاشيا، ثم قال: هذا شأنكم، هذا شأنكم! حين لا تطيقون احتمال واقعكم التعس ولا تطيقون دفع الثمن اللازم لتغييره، لأنكم تعلمون أنه باهظ، تلتجئون إليّ. إنني أنظر إلي ما يفعله الناس الآخرون، وما يبذلونه، ولا يسمحون لأحد بأن يحشرهم في ديماس من هذه الدياميس، فأغضب عليكم. ماذا ينقصكم؟ هل بينكم

من تنقصه حياة حتي لا يقدمها، أو ينقصه موت حتي يخاف علي حياته؟

وكنت أستمع إليه وأنا مبهور النفس. واحْلَوْلَك الديماس في عيني. وتذكرت فجري الموعود في مدينتي حيفا الحبيبة. فاشتدت عليّ الهواجس.

فقلت: غدًا أعود إلي مدينتي حيفا، يا ذا المهابة.. وأحيا فيها، فانصحني.

فهدأ اضطرابه. وقال: لن تجديك نصيحتي. إلاّ أنني سمعت في بلاد فارس حكاية عن فأس ليس فيها عود ألقيت بين الشجر. فقال الشجر لبعض: ما ألقيت هذه ها هنا لخير! فقالت شجرة عادية: إن لم يدخل في إست هذه عود منكن فلا تخفنها.

اذهب، فهذه الحكاية لا تصلح للعود.

– فهل أستطيع، يا ذا المهابة أن ألقاك مرة ثانية؟

– متي شئت، تعال إلي هذه الدياميس.

– في أية ساعة، يا ذا المهابة؟

– حين تخور.

– متي؟

ولكنه كان قد اختفي. فبقيت وحدي أتخلل في الدياميس، وأهيم في ديماس حتي أتعثر بآخر، إلي أن شق الفجر الصادق بطن الأرض فألفيتني في باحة المسجد أتمطي وأتثاءب.

كيف أصبح سعيد زعيم عمال في اتحاد عمال فلسطين

الآن، وأنا في بحبوحة من الوقت، أستعيد لقائي الأول برجل الفضاء العجيب، فأعجب من نفسي كيف تركته يمضي دون أن أتعلق بأهدابه وألح عليه أن ينقذني من هذه الحياة المهولة.

أما في حينه، فكنت مشغولاً بإعداد نفسي لملاقاة الأدون سفسارشك، فكنت أحطه فوق القلب مع رقية جدتي.

ولكنني لن أطيل عليك السرد، يا محترم. فقد دخلت مركز البوليس في عكا في الساعة السابعة صباحًا بالضبط، كما أمروني. فسألت عن سيدي الحاكم العسكري الذي سيحملني إلي حيفا. فجعلوني أنتظر حتي الرابعة مساء دونما طعام أو شراب سوي قدح من الشاي قدمه لي جندي شاب حدثني باللغة الإنجليزية، فرددت عليه بأحسن منها.

قال إنه متطوع جاء ليحارب الإقطاع، وإنه يحب العرب. وقبل أن يترك المركز عاد وصافحني بحرارة ووعدني بأنه، حين تنتهي الحرب، سيقيمون لنا كيبوتسات يعتمدون فيها علي أمثالي من الشبان المتحررين الذين يتقنون لغة إنسانية. وقال: شالوم! فأجبت بـــ (بيس) مؤكدًا إنسانيتي. فضحك وقال: سلام، سلام، بالعربية. فانفرجت غمتي.

ثم أركبني أحدهم إلي قرب السائق في سيارة جيش مغبرة وموحلة. وركب إلي جانبي، صامتًا، حتي أشرفنا علي مدينتي حيفا عند السعادة. فلم أبحث عن شقائق النعمان، لأنني تيقنت من عدم وجود مكان لذكريات الطفولة علي هذا المقعد الذي لا يتسع لثلاثتنا.

فقال: أهلاً وسهلاً في مدينة إسرائيل!

فحسبت أنهم غيروا اسم مدينتي الحبيبة، حيفا، فأصبح (مدينة إسرائيل). فانقبض صدري مثلما انقبض، فيما بعد، حين مررنا بوادي الصليب، فإذا بالدرب خال من الناس ومن لعلعة الرصاص، التي تعودنا عليها في الأشهر الأخيرة قبل أن يسقطا – والدي وحيفا. فقلت في نفسي: ها قد حل السلام الذي تمنيناه، فلماذا شعوري بالانقباض؟

فأجاب حارسي، وكأنما كان يحرس أفكاري أيضًا: السلام، ما أوسع السلام!

فتحركت وأنا أحاول أن أتوسع في مقعدي. فزجرني فانزجرت. فأوقف السيارة وطلب مني الانتقال إلي ظهرها المفتوح، قائلاً: كل واحد يقعد في مكانه.

ولكنني لم أجد علي ظهرها مقعدًا، فوقفت في مكاني.

حتي دخلنا في وادي النسناس، من شارع الجبل ففرن الأرمني. فلم أنتظر أن ألقي طفله الذي علمته القراءة العربية، ذلك لأن باب الفرن كان مسدودًا.

فقال: انزل.

فنزلت.

فسلمني إلي اللجنة العربية المؤقتة.

فتسلموني شاكرين. فلما أقفي شتموه.

وصاح أحدهم: هل يحسبون مقر اللجنة أوتيلا؟ لا بد أن نحتج علي ذلك في مكتب وزير الأقليات.

فأردت توكيد عروبيتي كي أستميلهم نحوي، فتحسرت أمامهم علي اسم مدينة حيفا الذي أصبح مدينة إسرائيل. فحملق أحدهم بالآخرين، وقال: وأهبل أيضًا؟

فلم أفهم كيف اعتبروني أهبل حتي معركة الانتخابات الأولي حين فهمت أن كلمة (مديناه) بالعبرية تعني (دولة) بالعربية. فحيفا أبقوا علي اسمها لأنه توراتي.

فاقتنعت، بيني وبين نفسي، بأنني حقًا أهبل. وأكبر دليل علي ذلك أنني كنت آخر من تحقق من أعضاء اللجنة أن المرحوم كيوورك كان يقدم لنا، في مطعمه، لحم الحمير. فنطعم ونشكره.

وفي صباح اليوم التالي، نزلت إلي شارع الملوك حيث استقبلني الأدون سفسارشك علي عتبة مكتبه، وهو في ثياب الجندية. فنقدني عشر ليرات صحاح وقال: أبوك خدمنا، خذ هذه وكل! فصرت آكل في مطعم كيوورك حتي وجد لي أحد أعضاء اللجنة بيتًا مهجورًا من بيوت عرب حيفا. فجاء الجنود المسرحون وطردوني من هذا البيت. فاشتغلت زعيم عمال في اتحاد عمال فلسطين.

سعيد يلتجئ لأول مرة إلي الحواشي

حاشية: بعد أن دارت الأرض دورة كاملة أي في هذه الأيام، قرأت في صحفكم عن المذكرة التي قدمها وجهاء الخليل إلي الحاكم العسكري أن يبيح لهم استيراد الحمير من الضفة الشرقية، فقد ندرت. فسأل الصحفي: أين ذهبت حميركم؟ فضحكوا وأخبروه بأن جزاري تل أبيب أنفقوها في صنع النقانق. وحيث إنكم كنتم تؤكدون لنا، يا محترم، أن التاريخ حين يكرر واقعة، لا يعود علي نفسه، بل تكون الواقعة الأولي مأساة حتي إذا تكررت كانت مهزلة، فإني أسألكم: أيهما المأساة؟ وأيهما المهزلة؟

هل هي مأساة الحمير في وادي النسناس، التي ظلت أكثر من سنة سائبة: حمير من الطيرة، وحمير من الطنطورة، وحمير من عين غزال، وحمير من أجزم، وحمير من عين حوض وحمير من أم الزينات صينت من العقل، ومن لغط الإناث، فلم تهاجر، فنفقت دون أن يتحقق من لحمها الدسم غير المرحوم كيوورك، أم هي مهزلة النقانق الشهية، صنعة تل أبيب؟ أعلم، يا محترم، أنكم عنيدون فيما تستنبطونه من نتائج. ولكن، أليس صحيحًا أنه حيث يهاجر القوم، تبقي الحمير، وحيث يبقي القوم لا يجد الجزار ما ينقنقه سوي لحم الحمير؟ خذوا عني هذه الحكمة: كم من شعب أنقذته بهيمة من سكين جزار!

وفي أيامي الأولي، زعيم عمال في اتحاد عمال فلسطين، ولجت بيوتًا عربية مهجورة كثيرة في حيفا، من أبوابها المكسورة. فوجدت أقداح القهوة مصبوبة لم يجد أهل البيت وقتًا حتي يشربوها. وجمعت أثاث بيتي بعضه من هذا البيت، وبعضه من ذاك البيت، مما بقي من متاع لم تمتد إليه أيدي الذين سبقوني في الزعامة، الذين سبقتهم يد الحارس علي الأملاك المتروكة، الذي سبقته أيدي وجهاء حيفا من زملاء وجهاء حيفا العرب، الذين لم يتركوا فيلاتهم إلاّ بعد أن أوصوهم بها خيرًا حتي يعودوا (بعد شهر علي الأكثر)، فحفظوها في القاعات الشرقية التي أفردوها في فيلاتهم لتوكيد صداقة قديمة لا تفني ولا تزول مثل خشب السنديان. فأصبحوا يتباهون بالسجاد العباسي (نسبة إلي شارع عباس في حيفا) كما تباهي أمثالهم في القدس بالسجاد القطموني (نسبة إلي حي القطمون في القدس). وصار الشيوعيون يسمون الحارس علي الأملاك المتروكة بالحارس علي الأملاك المنهوبة، فأخذنا نلعنهم علانية ونردد أقوالهم في سرائرنا.

فلما وقعت حرب الأيام الستة، التي جاءت بعد عملية قادش (المقدسة) مثلثة الرحمات ، التي جاءت بعد حرب الاستقلال، ورأيت أولاد القدس والخليل ورام الله ونابلس يبيعون صحون الزفاف بليرة، قلت: بليرة ولا بلاش! وأيقنت صحة استنباطكم، يا محترم، بأن التاريخ، حين يعيد نفسه، يعيدها متقدمًا أمامًا، من بلاشي إلي ليرة. إن الأمور، حقًا تتقدم. وانتهت الحاشية.

كيف لم يعُدْ سعيد أبو النحس تيْسًا

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد. فقد رحت أتعجب من جهل العامل اليهودي باللغة العبرية حتي أقنعت نفسي بأن هذه الدولة ليست بنت معيشة. فلماذا لا أحفظ خط الرجعة؟

فقلت: ما لي غير المحامي عصام الباذنجاني، صديق ابن العم الوزير الأردني، وأخيه الروح بالروح. وكان قد حول بيته الكبير في شارع عباس إلي صومعة ينفث منها اللهب علي دولة الأدون سفسارشك كلما زاره صحفي أجنبي. حتي الشيوعيين، الذين اعتبرهم وزير الأقليات أخطر طابور خامس في عقر الدولة، اعتبرهم صديق ابن العم الوزير الأردني مارقين علي العروبة وعلي دينها.

وكان لا يعترف بهما – بالدولة وبصحفها – فيرفض أن يقابل من رجال الصحافة سوي الأجانب. فلا تظهر تصريحاته إلاّ في التايمزين – تايمز لندن، وتايمز نيويورك، وفي أمهات الصحف في بلاد العرب، من النيل إلي بردي. ونحن، زعماء العمال في اتحاد عمال فلسطين، أخرجنا صفير التعجب، من شفاهنا المزمومة، علي وقاحته القومية حين سمعنا أنه رفض تعليم ابنه في الجامعة العبرية في القدس، بل بعثه إلي كمبردج – إلي كمبردج! وعدنا نزم شفاهنا في صفير الدهشة.

فلما أرخي الليل سدوله، تسترت بها وطرقت بابه. فتوقفت قرقعة أحجار النرد. وفتح لي وهو يخشخش بالزهر. فمسيت عليه، فأدهشته الزيارة. فلما رأيت أحد زملائي، من زعماء اتحاد عمال فلسطين، عنده، وكان يلاعبه، وقد هم بالخروج حين دخلت، لم أخف دهشتي. فحياني وقال: جاري! فتنحنحت علي سبيل الموافقة. وبقيت أتنحنح حتي خرج.

ولما انتهيت من تعداد ما لابن العم الوزير الأردني من مناقب، ولما انتهي الباذنجاني من التحسر علي مصيري الأسود، ومن الوعد بالعفو عند المقدرة، سردت علي مسامعه ما وقع في مغامرتي، وما وقع في رأسي من نتائج. فباركني، وقال: يفرجها!

ولكنه لم يفرجها.

فما أن وطئت قدماي عتبة النادي، في صباح اليوم التالي، حتي استدعاني يعقوب إلي غرفته. فإذا وراء مكتبه رجل ربعة، وضع فوق عينيه نظارة سوداء وأسدل الستائر. فقلت: هذا ضرير.

وأقبلت عليه، وأخذت يده في يدي مسلمًا قبل أن يمدها إليّ حتي لا أحرجه في عماه. فزجرني يعقوب، وصاح: تأدب! فوقفت متأدبًا.

فقال يعقوب: هذا رجل كبير، وجاء ليحادثك علي انفراد، فلا تخف عنه شيئًا.

وتركنا لوحدنا.

فما أن أطبق علينا الباب حتي انتفض الرجل الكبير واقفًا، فلم يزدد طوله سوي شبر.

وصاح: إننا نعرف أين كنت أول أمس!

فقلت في نفسي: إذا لم يكن هذا ضريرًا فإنه أطرش. فاقتربت من أذنه وصحت: أردت أن أستنشق هواء البحر، ممنوع؟

فلطمني، فلم يخطئ الهدف.

فقلت في نفسي: لا أطرش، ولا ضرير، بل هو رجل كبير حقًا. فتصاغرت له، وقلت: اسأل عني الأدون سفسارشك.

فصاح: أم أسعد!

فقلت في نفسي: حتي أنت، يا أم أسعد؟

فصاح: (أخت). ولفظها ألمانية فصحي.

فقلت في نفسي: ما بقي إلاّ أن يسألني عن ليلتي السوداء في بيت الباذنجاني.

فصاح: النرد!

فارتميت علي الكرسي، ووضعت رأسي بين راحتي وأنا أهتز يمينًا وشمالاً مثلما عودتنا الوالدة.

ثم وجدتني أقول فيما يشبه العويل: والله العظيم لا أعرف عن ابن عمي الوزير الأردني غير اسمه.

– هل هو ابن عمك لزما؟

– والله العظيم لا.

– لماذا؟

فتحيرت كيف أرد علي سؤاله هذا. ولكنه كان قد هدأ، وقام إليّ، وربت علي كتفي أبويًا. وقال: ليكن هذا درسًا لك. ولتعلم أنه لدينا وسائل حديثة نضبط بها حركاتك وسكناتك حتي ما تهمس به في أضغاث أحلامك. وبأجهزتنا الحديثة نعرف كل ما يدور في هذه الدولة وخارجها. فلا تعد إليها مرة ثانية.

ولكنني ظللت أهتز يمينًا وشمالاً لا يخرج من فمي غير: أنا تيس، أنا تيس!

حتي خرج بعد أن أنزل نظارته السوداء عن عينيه. فرحت أترحم بصوت عال علي والدي، الذي كان أول من أدرك هذه الحقيقة عني.

فالله يستر عرضك يا أم أسعد، ويستر عرضك يا (أخت). ووالله العظيم أستطيع أن أذهب أني شئت، وأستطيع أن أفكر بما شئت. ولكنني كنت تيسًا حين طرقت باب الباذنجاني. وكان والدي، رحمهُ الله، محقًا. كان دائمًا يغلبني في وقعة النرد، حتي إذا قلت له: أنت غلاب بها يا أبي، قال: لا يا بني، بل إن كل أصحابي يغلبونني. ولكنك تيس!

ولما قررت أن لا أبقي تيسًا، لم أخبر الرجل الكبير برأيي في جهازه الحديث.

هل كان سعيد هو رأس الخيش؟

أصبح رأيي في جهازه مقررًا. فلو كان يستطيع، حقًا، أن يحصي عليَّ حركاتي وسكناتي لكان سجل علي لقائي الغريب برجل الفضاء. ولكنه لم يفعل.

فقررت أن أطمئن إلي هذا الأمر، فأزور صاحبي الفضائي في دياميس عكا، فقد يحتاج إلي الحذر. وإني لمحتاج إليه.

فبالغت في الخضوع لرؤسائي طول الأسبوع وقد قر قراري أن أفعلها وأن أتسلل إلي عكا يوم السبت.. وهو يوم عطلتنا.

وكان السبت، الذي وقع عليه الاختيار، هو اليوم الحادي عشر من آخر شهر في سنة 1948 ذات الكف العفريتية. فأنا لا أنسي هذا التاريخ الذي أصبحت، فيما بعد، أؤرخ به حياتي – ما قبل وما بعد.

في مساء الجمعة، عشية السبت، كنت منزويًا في داري، أجمع شتات أفكاري علي أسلم طريق أختاره في تسللي إلي عكا صبيحة الغد.

وكنت أطفأت النور وآويت إلي الفراش مبكرا حتي لا تزورني جارتنا الأرمنية العانس التي ما كانت تطيب لي إلا حين نشرب حتي نثمل – أنا حتي أحسبها صغيرتي (يعاد)، وهي حتي تحسبني كبيرها سركيس (الذي ذهب مع العرب).

وكان من عادتها أن تنشط نشوتها بالتمتمة باللغة الإنجليزية عن كلارك جيبل وشارل بواييه وأشباههما.. فلبستني آفتها. فصرت أتمتم، مثلها، بما يقال وبما لا يقال، حتي إني لعنت، في اليوم السابق، الباذنجان وكل من يستطيبه. فقامت غاضبة دفاعًا عن الباذنجان المحشو بالبرغل وباللحم. فاحتبست. لذلك قررت، من باب اليقظة، ألاّ أفتح لها الليلة الباب.

وأنا في هذه الهواجس ومثلها، إذا بطرق علي الباب. قلت: جاءت، ولكنني لن أفتح لها، ولن أعتذر عما بدر مني في حق الباذنجان. فعاد الطارق يطرق. فراودتني النفس الأمارة. فقلت: هل أفتح لها ولا أتمتم؟ فعاد الطرق علي الباب. فقمت وأنا أقول: لن يكون الجهاز يحكي بالأرمنية. وهذه مسكينة وأنا مسكين. وفتحت الباب.

فإذا أمامي امرأة وسط، ذابلة السحنة وخضراء العينين، تسألني في استحياء ورجفة: سعيد؟

فأخذتني المفاجأة، فانعقد لساني، وأنا أنظر في عينيها الخضراوين وأطلب من نفسي ملحًا أن أتذكر هذا الوجه الذابل. لا بد أنها من قريباتي في القرية، أو جاءت من وراء الخطوط. فما جاء بها في هذه الليلة الليلاء؟

قلت همسًا: تفضلي. وانتابتني المخاوف.

قالت: أختي (يعاد) تحت. فهل تصعد؟

فبدأت أشك فيما أري وفيما أسمع. لقد كنت، حين تلح الحاجة عليّ ويستفرغني الفراغ، أقعد مفتوح العينين، أو أمشي مفتوح العينين، فلا أري سوي (يعاد)، فأقبض بيدي علي يدها، ثم أضمها إلي صدري، فنروح في غيبوبة لم أقم منها مرة، وأنا في مكتبي في اتحاد عمال فلسطين، إلاّ علي أبي مصطفي الأعرج وهو ينقض عليّ بعصاه لأنني تركته ينتظر خارج المكتب نصف نهار، بعد أن قلت له أن ينتظرني ربع ساعة، فألقاني في غيبوبة أخري.

– هل حقًا أنت أخت (يعاد)؟

– فهل تصعد؟

– (يعاد)، (يعاد).

– عد! لا يصح أن تنزل إليها بثيابك الداخلية. عد والبس ثيابك، فأنا أناديها.

ففعلت ما نصحتني أخت (يعاد) بأن أفعله. ورحت أتراكض بين الغرف وأنا ألبس ثيابي، تارة، وألقي في المرحاض بما احتوته منافض السجائر من بقايا أعقابها الملوثة بأحمر شفاهٍ، أخري. فلما سحبت حبل ماء الشطف فلم ينهمر، ملأت دلوا وألقيته فيه، فانسكب الماء علي الأرض، فانسحبت عليه، فوقعت علي يدي وركبتي أمام الباب المفتوح، فإذا أنا، علي هذه الحال، أمام قدمي (يعاد) بعد طول الغيبة.

فقالت: جازاك!

فانتصبت واقفا والماءان يتصببان من وجهي، ماء الوجه وماء المرحاض. فتهالكت علي أقرب مقعد ورحت أبكي. فتراكضت (يعاد) وأختها نحوي، وجففتا الماء ودموعي، وطمأنتاني علي أن كل شيء يصلح.

فأي شيء هذا الذي يجب أن أصلحه؟

فقالت (يعاد) معاتبة: أنت تعرف يا سعيد، سامحك الله، ما فعلت بأبي وبالآخرين.

ولكنني، سامحني الله، لم أفهم شيئا.

فقالت أخت (يعاد) إن (يعاد) جاءت اليوم من الناصرة، مشيًا علي الأقدام، عبر شفا عمرو، فأبطن، فوق الجبال وحيدة، لتخبر أختها في حيفا بأن والدهما قد ألقوا القبض عليه في الناصرة، وبأنني أنا، سعيدًا، السبب في القبض عليه، وبأنني أرشدتهم إليه.

– أنا؟

فقالت (يعاد): كلهم يقول أنت. أنت رأس الخيش؟

– أنا؟

– وأبوك من قبلك؟

ومن خلال العتاب، المشبع بالنحيب وبأيماني المغلظة أنني لا يمكن أن أخرب بيت أحد من الناس، فكيف ببيت (يعاد)، فهمت أن أبا (يعاد) كان قد هاجر مع عائلته من حيفا. إلي الناصرة، وذلك بعد لغم الرفينري الأول. فلما سقطت عاصمة الجليل دعا الجيش الأهالي إلي تسليم أسلحتهم. فلما أبلغهم رئيس البلدية أن لا سلاح في الناصرة سوي طاولات شيش البيش التي انكبوا عليها في الساعات التي رفع فيها منع التجول، بدأت عمليات التطويق.

فطوقوا الحارة الشرقية، التي التجأت إليها العائلة. وحشروا الرجال في الأرض الخلاء عند الجابية، وراء كنيسة الأقباط، طول النهار في الحر الأوار وبدون ماء، مع أن الجابية كانت تفيض تحت أقدامهم ماء مقدسة من عين العذراء المقدسة.

وقالت (يعاد) متباهية إنها هي التي ذكرت الشيوعيين ببيت الشعر الذي جعلوه عنوان نشرتهم والتي وزعوها في أثناء التطويق:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

فاستدعاهم الحاكم العسكري. فلما أنكر أن يكون الجيش قد منع جمال الحارة ودوابها عن ماء الجابية يوم التطويق، حاولوا أن يفهموه أن الأمر تورية. فثارت ثائرته دفاعًا عن كرامة بني الإنسان الذين لا يصح تشبيههم بالدواب، حتي ولو كانوا أعداءنا العرب. (لقد أصبحتم مواطنين،

مثلكم مثلنا). وطردهم من حضرته.

وكان الجيش، أثناء التطويق، قد نحَّي جانبًا كل من أرشد إليه رأس الخيش، ثم نقلهم إلي سجن الجملة، علي اعتبار أنهم أسري حرب. وكان من بينهم والد (يعاد).

– فما رأس الخيش هذا؟

قالت (يعاد): رجل أخفوا رأسه بعديلة خيش، ثقبوا فيها ثلاثة ثقوب، لعينيه ولفمه. وأقعدوه وراء طاولة تحوطها عسكر. وكان رجالنا يمرون أمامها فيتحققونهم. فإذا اهتز رأس الخيش إلي أمام مرتين، نحوا الرجل عن بقية الرجال. فأخذوا، في التطويق الواحد، ما لا يقل عن خمسمائة رجل وولد، أسري حرب.

فلماذا فعلتها يا سعيد؟

الليلة الأولي، وحيدًا، مع (يعاد)

لقد أقنعت (يعاد) وأختها بأنني لم أكن رأس الخيش. ولكني أصبحت، منذ تلك الليلة خرقة الخيش!

كانت (يعاد) جاءت من الناصرة إلي حيفا دون إذن من السلطة. فهي متسللة. وكانوا يدخلون البيوت، من أبوابها في كل لحظة، بحثًا عن هؤلاء المتسللين. فإذا وجدوهم نقلوهم في ظلام الليل إلي مشارف جنين، في السهل الواقع بينها وبين قرية المقيبلة الذي كان الجيش البريطاني معسكرًا فيه. فلما انجلي عنه خلف لنا فيه ألغامًا كثيرة أضاف إليها عساكر العرب وعساكر اليهود ألغامًا أخري، وذلك لأن خط المواجهة الأول كان يقوم هناك. فلما وضعت الحرب أوزارها علي صدورنا، انفجر أحدها تحت أقدام أولاد صندلة وهم عائدون إلي أمهاتهم من المدرسة. فقتل علي الطريق 17 منهم كما جاء في البيان الرسمي، غير الجرحي الذين ماتوا فيما بعد. وفي حينه جمعنا يعقوب وألقي علي مسامعنا محاضرة عن الشيوعيين أعداء السامية، الذين يحرضون الناس علي الإضراب والتظاهر مدعين أن اللغم هو لغم إسرائيلي.

وقال: بما أن جمعيتنا، اتحاد عمال فلسطين، هي منظمة دمقراطية، في دولة ديمقراطية، فأنتم أحرار في أن تعلنوا أن اللغم هو من بقايا الإنجليز، أو أن اللغم هو من بقايا العرب.

فلما تنطح له زميلنا الشلفاوي (كان مشلول اليد اليمني) وقال إنه قرأ في بيان الشيوعيين أنهم يتهمون الحكومة بالإهمال في تنظيف الطريق من ألغام الحرب، أجابه يعقوب: نعلم أن زوج أختك هو واحد منهم!

فانشل لسان الشلفاوي.

ولذلك اتفقنا علي أن بيت أخت (يعاد)، التي لم تترك بيتها وأولادها في الحليصة منتظرة عودة زوجها الذي خرج ذات صباح وهو يقول لها: انتظريني فإنني عائد، ولكنه لم يعد، هو بيت لا مأمن فيه علي أختها المتسللة.

واتفقنا، وأنا خافض البصر، أن تبيت (يعاد)، الليلة، في بيتي حيث أفردت لها غرفة خاصة وأنا خائف أن تسمعا خفقان قلبي.

وحلفتني أخت (يعاد) بعرض أختي أن أصون عرضها.

– وهي لك، إذا شئت، فيما بعد، شرعا.

وودعتنا وانصرفت وأنا مبهور الأنفاس وقد تشابك في ذهني عرض أختي الضائع و(يعاد) التي لقيتها فجأة، والتي دخلت إلي غرفتها وأقفلت عليها الباب وأخذت تبكي وتنشج بصوت مسموع، وأنا مستلق علي فراشي أمام بابها لا أنام ولا أقوم. لا هي تكف عن البكاء، ولا أنا أكف عن الاستلقاء، حتي سمعتها تنادي:

– سعيد!

فتظاهرت بأنني نائم.

– سعيد!

فحبست نفسي.

فإذا هي تفتح الباب بيننا. فأغمضت عيني. فشعرت بأنها تسوي اللحاف فوقي. ثم سمعت وقع خطواتها وهي تسير الهوينا نحو دورة المياه، ثم تغتسل، ثم تعود من حيث جاءت. وتترك الباب بيننا مفتوحًا فتحًا خفيفًا.

فكيف أقوم الآن؟!

ستعلم، حينئذ، أنني مستيقظ. فكيف لم أرد علي ندائها؟ إنها حبي الأول. وبعد هذه الليلة أصبحت حبي الأبدي. (فكيف تركتها تبيت في بيتي، وحيدين، ولم أقل لها كلمة واحدة؟ قبلة واحدة؟ هل أنا جبان؟ فكيف لم أجبن أمام صاحبة سركيس؟

فماذا أفعل الآن؟ وإلي متي أظل مستلقيًا؟ ولكنني لم أستلق طويلاً.

يا سعيد، لا يهمّك، فإنّني عائدة!

كان المتسلل الأبدي، الفجر، يدهمني من النافذة الشرقية، وكنت راقدًا أحبس أنفاسي، مثلما يحبسها ولد طلع الفجر عليه وقد بلل فراشه فينتظر عجيبة تنقذه من مصيبة، فإذا طرق شديد علي الباب نفضني فألقاني في غرفة (يعاد) التي كانت واقفة وقد ارتدت جميع ثيابها، وهي ترتجف جزعًا.

قالت: هل جاؤوا؟

قلت: لست أدري.

– فمن الطارق؟

– لست أدري.

– أغلق الباب علي، ولا تخبرهم بوجودي هنا، بعرضك!

واشتد طرق الطارق. وسمعنا لغطًا.

فهمست: يا حياتي.

فهمست: ليس الآن، ليس الآن.

– أنت لي.

– فيما بعد، فيما بعد.

– بل الآن، الآن.

فابتعدت عني، فتشبثت بها، ففرت إلي غرفتي، فوقعنا علي السرير، فسمعنا الباب الخارجي ينخلع. فانخلع ضلعي الشمال. فأغلقت الباب عليها، ووقفت أمامهم في ثياب النوم.

لقد كانوا عساكر.

– تفتيش!

– لماذا خلعتم الباب؟

فأزاحني أحدهم من أمامه. فانتشروا في البيت ينبشون الدواليب ويقلبون الأدراج.

– هل أنت وحدك هنا؟

– وحدي.

وكنت، في هذه الأثناء، قد لبست بنطلوني وقميصي ووقفت مستحكمًا أمام باب الغرفة التي اختبأت فيها (يعاد). واستللت بطاقة تدل علي نسبي إلي اتحاد عمال فلسطين، واستعذت بالأدون سفسارشك، فكفوا عن النبش والكش.

إلاّ أن الذي بدا رئيسًا عليهم شك في أمر الغرفة التي وقفت أمام بابها المغلق. فأزاحني عنه ليفتحه.. فتسمرت في مكاني. فصاح: افتح! فقلت: لا شيء هناك. فثار غضبه وتقدم نحو الباب. فمددت ذراعي علي طولها وقد قررت أن أستشهد. فنظر وراءه إلي جماعته وضحك. فلم يضحكوا. فأمرهم أن ينقضوا عليّ. فترددوا. فزعق. فانقضوا دفعة واحدة. وجرجروني حتي أخرجوني خارجًا. ثم دحلوني علي الدرجات من الطابق الثالث. فظلت الأيدي تتقاذفني وأنا مدحول حتي وجدتني في فناء الدرج تحت أقدام يعقوب ويدي متشبثة ببطاقة اتحاد عمال فلسطين، وأنا أمدها، متمددًا، نحو عينيه، فلا تبلغهما.

فصاح: إنني أعرف من أنت، يا حمار. قم وأخبرني بما حدث!

ولكنني لم أفعل.

فقد سمعنا، من فوق، صراخًا أنثويًا، وصوت لطمات، وركل، وجلبة. وتطلعنا إلي فوق فإذا بمعركة حامية تدور بين (يعاد) وبضعة عساكر، كانوا يقذفون بها علي الدرج إلي أسفل. ووقف عساكر آخرون وهم يحاولون ألاّ يروا ما يحدث. وهي تقاوم وتصرخ وتركل بقدميها. وعضت كتف أحدهم فصاح من الألم وولي بعيدًا. وظلوا يدفعونها وهي تقاومهم وتركلهم حتي ألقوا بها في فناء الدرج، فهبطت علي قدميها منتصبة القامة ورأسها في السماء.

وقال أحدهم وهو يلهث: متسللة. فصرخت: هذه بلدي، داري، وهذا زوجي.

فلفظ يعقوب شتيمة ذات خمسة أحرف.

فنسبتها إلي أمه.

فتكاثروا عليها. ودفعوها أمامهم إلي سيارة كانت امتلأت بالخلق من أمثالها، وذهبوا.

وسمعتها، والسيارة تتحرك، تنادي بأعلي صوتها: سعيد،

يا سعيد، لا يهمك، فإنني عائدة!

وكنت، بعد، متمددًا.

الجرح المفتوح

وبقيت عشرين عامًا أنتظر عودتها. فقد أخذوها مع غيرها من المتسللين إلي حيفا، من الناصرة ومن المجيدل ومن يافة ومن معلول ومن شفا عمرو ومن عبلين ومن طمرة، وكل عامل تسلل إلي حيفا ليطعم عياله، وألقوا بها في سهل جنين بين ألغام الإنجليز والعرب واليهود.

وبعضهم اختبأ بين الخرائب، وبين الأعواد، ولم يصل إلي الخطوط الأردنية. بل انتظر حتي أعتمت ونام النهار، فعاد أدراجه. فعادوا وطردوه. فعاد. فعادوا وطردوه. فعاد، حتي يومنا هذا.

وبعضهم ظل يمشي حتي تلقاه العسكر الأردني بالشتائم. فظل يُشتم حتي يومنا هذا.

وكانت (يعاد) بين الذين لم يعودوا. وواحد من المتسللين العائدين وضع في يدي، خلسة، ورقة. فإذا هي رسالة منها لم أقرأها إلا بعد أن وثقت من خلو المكان من الجهاز. وهي الورقة السرية الوحيدة التي احتفظت بها طول هذه الأعوام العشرين لكي أقنع نفسي بأنني قادر علي تحدي الجهاز، ولأنني اعتبرتها عقد زواج.

كتبت (يعاد):

أرجو ممن يجد هذه الرسالة أن يوصلها إلي زوجي سعيد أبي النحس المتشائل، وادي النسناس – حيفا.

سعيد، يا زوجي!

الوداع يا حبيبي. إنني أنتظر الموت عبر الحدود. ولكنني أموت وأنا مطمئنة علي أنك ستنقذ والدي من السجن. سلم علي أختي، واعتن بأولادها. الوداع، الوداع يا حبيبي.

زوجتك (يعاد)

وعلمت أنها لم تمت. فقررت أن لي زوجة في جنين، أو في مخيم لاجئين. فأخذت أهتم بجمع الشمل.

وكنت حريصًا علي الاستماع إلي رسائل المغتربين إلي ذويهم من إذاعة عمان. ولكنني لم أقو، أبدًا، علي توجيه تحية إليها في برنامج (سلام وتحية) الإسرائيلي وكان يستهل بأغنية فريد الأطرش: (أحبابنا يا عين، ما هم معانا. رحنا وراحوا عنا، ما حدش منا استني. عيني يا عيني).

فأمسح الدموع عن عيني في غفلة الجهاز، حتي لم تبق إذاعة عربية إلاّ أذاعت مثل هذا البرنامج. هذه تبدؤه (راجعون، راجعون)، وتلك: (وسلامي لكم، يا أهل الأرض المحتلة، يا منزرعين بمنازلكم، قلبي معكم وسلامي لكم) وأخري: (يا مرسال المراسيل عالدرب القريبة. خذ لي بدربك هالمنديل واعطيه لحبيبي)، حتي اختلط الحابل بالنابل، فضاعت (يعاد) كليًا.

فلما وقعت حرب الأيام الستة، وصار مرسال المراسيل يهتف: (نصر من الله وفتح قريب)، لم أعد أبكي علي (يعاد) بل علي حالي، وبدون أي خوف من الجهاز لأن الجميع تجهز.

ذلك أن يعقوب رثي لحالي. فلحقني إلي الساحة التي حشرونا فيها، في الزاوية بين شارع الجبل وشارع العباس، فأخرجني قبل أن يبدأ الفرز، وقبل أن ألتقي رأس الخيش. ولما حكيت له ما جري لي مع (يعاد)، لامني علي أنني لم أخبر العسكر بالحقيقة من اللحظة الأولي. ووعدني أن يتدبر الأمر مع أولي الأمر وأن يجدوا (يعاد) (حتي ولو كانت في قطر)، وأن يعيدوها إليّ.

– بشرط واحد يا سعيد. وهو أن تكون ولدًا طيبًا.

– حاضر.

– وأن تخدمنا بأمانة.

– حاضر.

وكل ذلك حرصًا علي مستقبل (يعاد) المسكينة، التي وعد أن يعيدها إليّ.

وقال: بالطبع، سيطول الأمر بعض الوقت.

ولكنه طال طول الوقت.

وفي كل انتخابات جرت في هذه البلاد كان يقنعني بأنه، حال الانتهاء من فرز الأصوات، سيأخذني إلي بوابة مندلباوم لاستقبال (يعاد).

– فهات همتك!

فكنت لا أنام ولا أهدأ وأنا ألاحق الشيوعيين، وأحرض عليهم، وأنظم الاعتداء عليهم، وأشهد ضدهم، وأندس في صفوف تظاهراتهم، فأقلب صناديق القمامة في طريق التظاهرة، وأهتف بسقوط الدولة، لتبرير اعتداء الشرطة عليهم، وأوسوس في آذان الشيوخ أنهم مزقوا القرآن الكريم في الأعظمية، وأجلس علي صندوق الاقتراع من السادسة صباحًا حتي منتصف الليل، ولا أنال أجرًا

علي هذه المهمة سوي إحياء الوعد بعودة (يعاد).

أما بقية زملائي، في المهمة، فكانوا يترقون في المناصب المخصصة لنا. فالشلفاوي صار عضو كنيست. ونظمي الشاويش أصبح شاويشًا. وعبد الفتاح داهن زقمه صار مدير مدرسة، وزوجه مديرة مدرسة، وابنته معلمة، مع أن ابنه وقع في أيدي الشيوعيين فبعثوه يتعلم الطب في موسكو.

ما بقي بدون أجر غيري وغير يعقوب، الذي أصبحت أنا أجره. فلما دمجوا اتحاد عمال فلسطين في الهستدروت عينوه موظفًا في الدائرة العربية، وأنا تحت يده.

ولم تنقذني الهمة التي أبديتها في الخدمة من غضب يعقوب، الذي لم تنقذه من غضب الرجل الكبير، ذي القامة القصيرة، وهو الذي يضع علي عينيه نظارة سوداء في الغرفة المعتمة المسدلة الستائر. فما أن تظهر نتيجة انتخابات حتي يستصحبني هائجًا مائجًا.

– راحت (يعاد) عليك. كيف سمحت للشيوعيين بأن ينالوا كل هذه الأصوات؟

– أنا؟

– يا ألله! خيرها بغيرها.

وعلي الرغم من كل أفعالي ظللت أشعر براحة الضمير، أنني أنشد التقاء (يعاد)، حتي تزوجت فصار السر الذي بيني وبين يعقوب، أن نعيد (يعاد)، يؤرقني كما لو أنه الخيانة الزوجية.

فأخذ يعقوب يضغط بكل ثقله علي هذا الجرح..

الكتاب الثاني باقية

صدرت في أواخر 1972

كيف اضطر سعيد إلي الإمساك عن الكتابة لأسباب أمنية

كتب إليّ سعيد أبو النحس المتشائل، قال: سلام عليك ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فأمسكت عن الكتابة إليك زمنًا شحيحًا لأسباب أمنية، أمني، هذه المرة. لا أمن الدولة، وأمن إخوتي الفضائيين الذين أقيم في كنفهم، في دياميس عكا، آمنًا غير مطمئن.

فلما جعلت حكومتكم ترمم الدياميس وتقيم جدرانها، وتضيئها بالكهرباء، وتكشف عن باحاتها، وعن زخارفها، وتزخرفها، جعلنا ننسحب إلي الدياميس غير المنظورة. لا نتوقف في مكان واحد، ولا نخلو إلي أنفسنا لحظة واحدة، كقولك: اضرب واهرب، كل واهرب، اكتب واهرب، وهذا غير متيسر.

حتي أدبر الصيف، وخفت الرجل، وانقطع اللغط سوي من دعاء ضفدع ومن نجوي صرصار.

فدعاني أخي الفضائي فقال: هلم نخرج إلي البحر.

فخرجنا. فاقتعدنا صخرة بعلبكية ملساء، علي هودج في السور إلي يسار المنارة. وأرسلنا خيوطنا نصطاد سمكًا.

وكنا في شهر أكتوبر. والنسمة شرقية دافئة. والبحر رائق المزاج تتناثر أضواء النجوم علي صفحته الهادئة. ونظرنا أمامنا فإذا حيفا المتوهجة أصبحت حيفاءين: حيفا المتكئة علي مسند الكرمل، وحيفا المستحمة في البحر، متجردة من أقراطها وعقودها وخواتمها.

فأري إلي البحر الجبار، وقد هدأ، كيف يبدو أشد جبروتًا. فالجبار المطمئن أشد جبروتًا. والبحر الهادئ هو الجبار المطمئن.

وكم من روح مضطربة، مثل روحي، التجأت إلي البحر تستمد منه هذا الاطمئنان.

فلما تكاثرت ليالي حزيران علي العرب، تكاثر صيادو السمك الهواة منهم. فقيل: يهربون من هموم أزواجهم.

وكانوا، بالحق، يبحثون في البحر عما يقنعهم بأن ثمة ما هو أقوي من دولتنا.

ورب ليلة دهمتهم الشرطة فيها، وهم قيام علي صخور الشاطئ في نهاريا، حيث يبلغ البحر

بالوعاتها، فيخصب بأشتات السمك، وقد استخفهم اطمئنان البحر، فاستخفوا بأسئلة العسس، فباتوا بقية ليلتهم في سجن.

أما أنا فحملتني هذه الهواية سرًا عجيبًا أصبح هويتي. ولولا لجوئي إلي إخوتي الفضائيين، في ديناميس عكا، حيث لا ينالني شركم، لحملته معي إلي القبر.

فأتذكر سري، وأقول: إن في هذه الجهات لسرًا عجيبًا! فيجيبني صاحبي الفضائي: سبقك إلي هذا القول ابن جبير الرحالة. وكان قعد علي هذا الشاطئ مترقبًا هدوء البحر ليفر من عكا، التي مومسها الروم. فكتب يقول:

(وفي مهب الريح، بهذه الجهات، سر عجيب. وذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلاّ في فصلي الربيع والخريف. والسفر لا يكون إلاّ فيهما. والتجار لا ينزلون إلي عكّا بالبضائع إلاّ في هذين الفصلين.. والسفر في الفصل الربيعي من نصف أبريل. وفيه تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها إلي آخر شهر مايه، وأكثر وأقل بحسب ما يقضي الله تعالي به. والسفر في الفصل الخريفي من نصف أكتوبر. وفيه تتحرك الريح الشرقية. ومدتها أقصر من المدة الربيعية. وإنما هي عندهم خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يومًا وأكثر وأقل. وما سوي ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف. والريح الغربية أكثرها دوامًا. فالمسافرون إلي المغرب وإلي صقيلية وإلي بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين انتظار وعد صادق. فسبحان المبدع في حكمته، المعجز في قدرته، لا إله سواه).

فأسبح بحمده. وأذكر أنه في هذه الخلسة من الزمان، من كل عام، يخرج صيادو عكا العرب إلي عرض البحر بمراكبهم الصغيرة ليصطادوا سمك البلاميدا الكبير، جرا. وهو سمكُ أجنبي لا تحسن العربيات طهوه.

فيقول صاحبي: هذا البحر يهدأ في الربيع وفي الخريف. وهما أحسن الفصول في بلادكم الحسناء حتي تكاثر العشاق عليها، طبقات طبقات، فلم يبق من العلوم ما يصلح لدراسة تاريخها سوي الأرخيولوجيا في استقراء آثارها الدارسة.

فأقول: في الربيع التقيت الطنطورية. وفي الخريف ضيعت ابنها. وحياتي بينهما خلسة من الزمان.

الشَّبه الفريد بين كنديد وسعيد

فينتبه صاحبي الفضائي علي أزيز طائرات نفاثة تروح وتغدو فوق البحر، شمالاً إلي رأس الناقورة ثم تغدو فتختفي وراء الجبل فأحسب أن سمكة مذعورة شدت في خيطه. فأشد في خيطي شدًا خفيفًا. فيهدئ من روعي، ويقول: تذكرت ما أتاني من تقول أصحاب صاحبك علي ما نشره من رسالتك الأولي إليه وقولهم: احتفز الأستاذ ليشب فوقع دون كنديد إلي الوراء مئتي عام! فأقول:

ما شأنه وهو رسول؟ فما علي الرسول إلاّ البلاغ!

فيقول:

كنديد متفائل، أما أنت فمتشائل.

فأقول:

هذه نعمة خص بها قومي من دون بقية الأقوام.

فيقول:

إن في الأمر لمحاكاة.

فأقول:

لا تلمني، بل لُم هذه الحياة التي لم تتبدل، منذ ذلك الحين، سوي أن (الدورادو) قد ظهرت فعلاً علي هذا الكوكب.

فيقول:

أفصح.

فأفصح بالمقارنة بيننا وبين كنديد كما يلي بالتمام وبالكمال، لا أسقط سوي ما تكرر، عامًا عامًا، علي مدي ربع القرن، وأقول:

ألم يعز بنغلوس نساء (الآبار) علي ما فعله بهن عسكر (البلغار)، من اغتصاب ومن بقر بطون ومن قطع رؤوس ومن هدم قصور، بقوله:

(غير أنه انتقم لنا. فقد أصاب الآبار بمثل ذلك السوء بارونية مجاورة يملكها سنيور بلغاري)؟

فبمثل هذه التعزية تعزينا نحن، بعد مئتي عام. وذلك في أيلول من عام 1972 يوم أن قتل رياضيونا في ميونيخ. ألم ينتقم لنا طيراننا الحربي بقتل النساء والأطفال، المبتدئين في رياضة الحياة في مخيمات اللاجئين في سوريا ولبنان، فتعزينا؟

وفي اليوم التاسع والعشرين من الشهر الذي جاء بعد أيلول، في أكتوبر الخلسة، ولما عادت طائراتنا من ضرب مخيمات اللاجئين في سوريا ضربًا موفقًا، ألم يجتمع الوزير بنغلوس بأرامل رياضيينا المغدورين ويعزيهم بأن طائراتنا أصابت الهدف إصابات محكمة وفعلت فعلاً عظيمًا؟

وحتي لما كانت هذه الدولة لا تزال تحبو، وتطلع علي العالم بريئة براءة الأطفال، في أوائل تموز من عام 1950 ألم يردد كاتبنا المشهور جون كمحي، في (جروسليم بوست)، حكمة بنغلوس هذا فكتب:

(لقد شن العرب حربًا دامية علي اليهود. فهزموا في هذه الحرب. فلا يحق لهم، إذن، أن يتذمروا حين يطلب منهم دفع ثمن الهزيمة التي نزلت بهم)؟

وكنديد، (يعن له، في يوم من أيام الربيع، أن يتنزه وأن يمضي قدمًا معتقدًا أن استخدام الإنسان لساقيه، كما يروقه، هو امتياز للنوع البشري، كما هو امتياز للنوع الحيواني. ولم يكد يسير فرسخين حتي أدركه أربعة أبطال طول الواحد منهم ست أقدام. فأوثقوه. وأتوا به إلي سجن مظلم).

فلما استخدم هذا الامتياز البشري، والحيواني، بضعة أولاد من قرية الطيبة، يتراوحون في العمر بين تسع سنين واثنتي عشرة سنة، فمضوا قدمًا إلي مدينة نتانيا ليروا البحر بالعيون بعد أن سمعوا هدير موجه بالآذان. ألقي القبض عليهم. فاقتيدوا إلي محكمة عسكرية. فأوقع حاكم المحكمة العسكرية علي هؤلاء الأولاد عقوبة الغرامة. فمن عجز عنها فبما يملكه حتي الطفل، وهو الحياة، شهرًا في السجن. ولما عجز أحد الأولاد عن دفع الغرامة، فافتداه والده بحياته شهرًا في السجن، أبي الحاكم إلاّ أن يزيد علي سنن الطبيعة شهرًا واحدًا، فأمر أن تفتديه والدة الولد بشهر عاشر من حياتها بعد شهور الحمل التسعة

وما زال هذا الامتياز البشري مرهونًا بإذن الحاكم حتي يومنا هذا.

وفي قصة كنديد، لما استولي القرصان علي سفينتهم في عرض البحر، فأخذوا يفتشون الرجال والنساء، روت امرأة عجوز ما نزل بها من تفتيش، فقالت: (ويعرون من فورهم كالقرود.. ومن الأمور التي تثير العجب سرعة تعرية هؤلاء السادة للناس. ولكن أكثر ما أدهشني هو إدخالهم إصبعا إلي مكان فينا جميعًا لم نكن، نحن النساء، لندع شيئًا يدس فيه غير أنابيب المحقنة.. وهذه

عادة استقرت، منذ زمن لا يعرف أوله، بين الأمم المتمدنة التي تجول علي البحر. وقد علمت أن هذا لا يفوت فرسان مالطا المتدينين مطلقًا، حين يأسرون تركا وتركيات. فهذا قانون دولي لم تخالف أحكامه قط)

فحتي يومنا هذا تطبق حكومتنا هذا القانون الدولي علي الترك والتركيات من العرب، جوًا وبحرًا وبرًا – في مطار اللد، وفي ميناء حيفا، وفوق الجسور المفتوحة. فصار الترك والتركيات، حين يزمعون أمرهم علي السفر، يتناظفون جيوبًا وحقائب وثيابًا، ظاهرة وباطنة. والتركية، حين ترغب في أن تضبع الشرطية، ترتدي أفخر الباطنيات النايلونية حتي تتأدب الشرطية حسدًا.

فيضحك صاحبي الفضائي ثم يقول مستريحًا: فهل تقوّل أصحاب صاحبك عليه، بأنه قلد كنديد، يعود إلي أنهم، حين كانوا يعرونهم، كانوا يدخلون أصابعهم هناك؟

– هات مثلاً..

– قرية برطعة، في المثلث، المقطعة، مثل الطفل في محكمة سيدنا سليمان عليه السلام، إلي نصفين، نصف أردني ونصف إسرائيلي.

– الطفل في محكمة سيدنا سليمان، عليه السلام، ظل سليمًا ورفضت والدته الحقيقية اقتسامه.

– أما برطعة فاقتسموها وظلت سليمة. فلما سطا لصوص علي قطيع بقر أردني، تعداده عشرة رؤوس، فمر الأثر بقرية برطعة، حملت الحكومة الأردنية علي القرية حملة محمولة علي ظهور الخيل. فجمع الفرسان الأهالي. وطرحوهم أرضًا. وأشبعوهم ضربًا ورفسًا حتي قام الأهالي وأشبعوا الفرسان، كل فارس دجاجتين، والخيل، كل فرس علفها. وبرطعوا في برطعة. فسميت برطعة. فلما عادوا أدراجهم، حمل جند بنغلوس علي القرية وانتشروا يبحثون عن المتعاونين مع الغزاة الأردنيين.

فإذا وجدوا قرويًا لم يطرحه الفرسان الأردنيون أرضًا واكتفوا بلكمه، ثبتت تهمة التعاون مع العدو عليه. فإذا كانوا طرحوه أرضًا واكتفوا برفسه، فهو متعاون. فإذا ضربوه ولكموه ورفسوه ولم يطرحوه أرضا فهو متعاون، إلخ

كنديد، يا سيدي، كان يقول: (كل شيء في هذا العالم حسن لا ريب فيه. وذلك مع الاعتراف بإمكان الأنين قليلاً مما يحدث في عالمنا روحا وبدنا). أما أنا فحتي الأنين لم يكن متيسرًا لي.

فيقول صاحبي الفضائي: أفصح!

فأفصح وأقول:

كيف تحول سعيد إلي هرة تموء

عشت في الدار الخارجة، خارج الديناميس، عشرين عامًا وأنا أريد أن أتنفس فأعجز، كالغريق، عن التنفس. ولكنني لا أموت. وأريد أن أنطلق فأعجز، كالسجين، عن الانطلاق. ولكنني أبقي حرًا.

وكم من مرة هتفت بمن حولي: يا قوم، إن فوق كتفي لسرًا خطيرًا أنوء بحمله، فأعينوني! فما خرج من تحت شاربي سوي مواء الهرة.

حتي آمنت بحلول الأرواح.

تصور روحك، بعد موتك، حلت في هرة. فبعثت هذه الهرة لتسيب في فناء بيتك. فخرج ابنك، حبيبك، يتلهي بما يتلهي به الصبيان من اللعب. فناديته، فمؤت. فزجرك. فناديته طويلاً، فمؤت طويلاً. فرماك بحجر. فذهبت في حال سبيلك وحالك كحال الفتي العربي في شعب بوان.

(غريب الوجه واليد واللسان)

هكذا حالي: عشرين عامًا أهر وأموء حتي أصبح هذا الحلول يقينًا في خاطري. فإذا رأيت هرة توسوست: لعلها والدتي، رحمها الله! فأهش لها وأبش. وكنا نتماوأ أحيانًا.

فهتف صاحبي الفضائي وقد انبسط صدره: علي رسلك يا ابن النحس! أراك تأهلت للانتقال إلي المرتبة التاسعة من الدعوة

قال: كان أسلافنا، من إخوان الصفاء وخلان الوفاء، شبهوا الخلق من أمثالك بالبهائم العجمية. فلجموا كما تلجم البهائم بلجم الحديد الثقال، والأرسان لتقاد حيثما قيدت، وتمتنع عن الكلام بما أرادت. حتي بإذن ربها بانتباه نائمها، وبقيام قائمها، وبظهور الناطق. فيفك البهائم الأسيرة، والأشخاص الذليلة، من أسر العبودية وقيد المملكة ورق الذل، ويجعل الذين أهانوهم في مثل ما كانوا فيه، جزاء ما كانوا يعملون.

فهتفت به: فأنطقني!

قال: عد إلي الكتابة إلي صاحبك.

قلت: أخرجني إلي الناس وكأنني خارج عن الناس. قال: وهل الذي استشعر منهم بمختلف كثيرًا عنك، أما أنت فتقمصت هرة. وأما هو فتقمص شاعرًا. وكلاكما يهرب حتي يتنفس، ويختنق

حتي لا يموت. ومنهم من احترف الأدب عجزًا. ومنهم من هرب من موقفه بتغيير موقعه.

وآخرون أخفوا عورة العجز بورقة الحكمة. وآخرون بالفلسفة، وبأن الزمان حاملهم لا محالة علي العقرب القصير، إن لم يكن حاملهم علي العقرب الطويل، إلي قيام الساعة، وبأن الشعب غير مؤهل لغير ذلك، وبما إلي ذلك من علل العليل.

ما هكذا فعل قائدنا، أبو ركوة ، قبل ألف عام. فلما رأي الناس يؤمنون بأن الحاكم بأمر الله يحكم بأمر الله، لم يسقط في يده، ولم ينتظر أن يصبح الشعب مؤهلاً، بل أقنعهم بأنه ثائر عليه، هو أيضًا، بأمر الله. فتلقب بالثائر بأمر الله علي الحاكم بأمر الله. فحيد العزة بالعزة. والحاكم أظلم. فتبعه خلق كثير. وكنا بينهم.

قلت: وسري الدفين؟

قال: فجد به.

وها أنا فاعل.

كيف سبَقَت العروبة الأصيلة، بالتشمير، عصر التشمير

في الربيع التقيت الطنطورية. وما هذا هو اسمها، بل نسبة إلي قرية الطنطورة، علي شاطئ البحر، حيث سقط رأسها قبل أن يسقط مسقطه بثلاثة عشر عامًا.

وكان الرحيل دهمها وهي في زيارة أخوالها، في قرية اسمها جسر الزرقاء، علي شاطئ البحر أيضًا. فبقيت فيها حتي تشاطرني الهموم وأشاطرها ردحًا من الزمن.

وأمر هذه القرية، جسر الزرقاء، أمر عجيب. فكيف صمدت هذه القرية لدواهي الحرب والترحيل، مع أختها فريديس – الفردوس – المجاورة، لما قبض الريح بقية القري العربية علي الساحل، ما بين حيفا وتل أبيب – الطيرة وأجزم وعين غزال والطنطورة وعين حوض وأم الزينات، وهي أعمق منها جذرًا، وأصلب عودًا؟

أما فريديس – الفردوس – فبقيت لحاجة في نفس يعقوب. وهو غير معلمي يعقوب من اتحاد عمال فلسطين. بل جيمس (يعقوب) دي روتشلد، الذي أقام بحلالة مستوطنة (زخرون يعقوب) – لذكري يعقوب – في أواخر القرن التاسع عشر. فانصرف أهلوها القادمون من أوروبا، إلي صناعة النبيذ الجيد، فتضعه مصايف العروبة، وقد تعددت أسماؤه، علي موائد أمراء الجزيرة، من الربع الخالي، عبر الجسور المفتوحة، فيستذوقونه، فينشد منشدهم:

يا بشر ما لي للسيف والحرب وإن نجمي للهو والطرب
لو كان قصف وشرب صافية مع كل خود تختال في السلب
والنوم عند الفتاة أرشفها وجدتني ثم فارس العرب)

ثم ينتشي منتشيهم صائحًا يتهم كل مطالب بتنفيذ قرارات مجلس الأمن بأنه خائن العروبة!

أما الفرادسة فقد أنقذهم عصر الكرمة، في دنان يعقوب، من أعاصير الحروب. والحق يقال عن أهالي زخرون يعقوب أن الربح الوفير، الذي جنوه من سواعد الفرادسة وسيقانهم، شد من سواعدهم حين حمل عليهم إخوانهم الصهيونيون، من ذوي العمل العبري النقي، التقي، الصافي صفاء خمرة تلك الدنان، حتي ضحكوا، بصفاء نية، من الحكاية التالية التي انتشرت عنهم وحدثني بها معلمي يعقوب، بصفاء نية:

إن آباء زخرون يعقوب اختلفوا يومًا:

هل من الحق، شرعًا، أن يعاشر الرجل زوجه في السبت، أم أن الأمر عمل، مثله مثل بقية الأعمال التي لا تجوز في السبت، شرعًا. فذهبوا إلي الحاخام ليقضي بينهم، هل الأمر عمل أم لذة. ففكر الحكم طويلاً، ثم حكم إنه لذة. فهات برهانك؟ قال: لو حكمت بأنه عمل لأعطيتموه العرب – الفرادسة!

فضحكنا، يعقوب لأنه يكره الأشكناز، وأنا لأنه ضحك.

ومن التجني أن تلوموا أبناء الفردوس – فريديس – علي أنهم حافظوا عليه فضلة دنان.

فمن شيد المباني الشاهقة في هذه البلاد، وشق طرقها العريضة، وزفتها، وأحكم الاستحكامات، وحفر الملاجئ؟

ومن زرع القطن، ثم جناه، ثم حلجه، ثم نسجه أثوابًا يتيه فيها سادة رغدان وبسمان، فقيل إن الاتحاد الوطني سيخيط منها لباسه الموحد، فيتساوي أعضاؤه، كأسنان المشط، لا فضل لعربي علي أعجمي إلاّ بملوكهم وبتقبع الكوفية، رمز العروبية، حتي إذا فارت دماؤها في عروقهم، تلثموا بها غب الشهادة، فإذا انفجرت دماؤها في عروقهم أقعوا يرغون ويزبدون بالحياة الأفضل، حتي إذا تأججت دماؤها في عروقهم لعنوا المستوردات الأجنبية سوي الملكية والكوفية والطيارة والخمارة والصورة والوقوف للصورة ولثم اليد وولي العهد و(تمتع الغني بما جاع به فقير) ، في الأسرة الواحدة الأسير، وقهر العمال والاستغلال، وقطع الرزق، والفسق، في عصر التشمير، وكان العرب سبقوا إليه حين قالوا: شمر للحرب وشمر للسلم وشمر للعمل وشمر للصلاة، ولم يقولوا: تقبع أو

تسربل أو تكوكف أو تلثم أو ولول: عاش الملك!

من شيد المباني وشق الطرق وحرث الأرض وزرعها، في إسرائيل، غير العرب الباقية في إسرائيل، فالعرب الباقية، صبرًا، فيما احتلته دولتنا من أرض لم يجد لها أحمد الشقيري متسعًا في ملفات خطبه الرنانة؟

ولقد رأيتهم، في ساحة العجمي بيافا، شبابًا في عمر التمر، من غزة وجباليا وبيت لاهية وبيت حنون ودير البلح وخان يونس ورفح، يتمايلون علي سيارة المقاول كتمايل شواهد القبور فوق إخوتهم الشهداء في مقابر غزة ، فآمنت بأن الأحياء يستطيعون هم أيضًا، أن يبقوا في وطنهم!

ورأيتهم في ساحة باريس (ساحة الحناطير، فالخمرة في الزمان الأول)، في حيفا التحتا، شبانًا في عمر نوارة اللوز والمشمش اللوزي والتفاح أبي الخد الأحمر، من قلقيلية وطولكرم وجنين وطوباس والسيلة واللبن، ينتظرون سيارة المقاول، فيتحسس سواعدهم ويروح النظر في قاماتهم الممشوقة، فيمتطي منهم من اشتد ساعده وقست ساقه. فاستعدت حالنا قبل عشرين عامًا. فآمنت بأن هذا الشعب لا يفني!

ورأيتهم، في المغيب، يحشرون في سيارات النقل العتيقة، كما حشروا، في يومهم، صناديق البطاطا، وكوموا الشمندر في سيارات أحدث من السيارات التي ينقلون فيها، عائدين إلي مدنهم وقراهم، إلاّ الذين غض السيد المقاول الطرف عنهم ليبيتوا ليلتهم في بناء لم يتموا بناءه، يتسترون بالطوب من الطارقين: برد ما قبل الفجر، ودهمة الشرطة ما قبل الفجر.

حتي إذا تفتحت أكمام الفجر شمروا عن أكمامهم وتفتحوا علي الحياة تفتح الياسمين. فتذكرت حالنا قبل عشرين عامًا، وكيف كان معلمي يعقوب يخيرني أن تضيع الطنطورية عليّ، كما ضاعت من قبل (يعاد)، أو أن أهب مع الفجر، فأنطلق إلي هؤلاء، الواقعين في براثن المقاول، فأنقذهم من براثن الشيوعيين (كما أنقذت عجائز النصاري لحية الخوري من المعط وهو قائم فوق المحراب يصلّي

فآمنت، يا محترم، بأن الأمر مكتوب علينا، فلا بد مما ليس منه بد. أو كما جاء في الأغنية الإيطالية التي ترجمتها شعرًا:

مشيناها خُطًي كتبت علينا ومن كتبت عليه خُطًي مشاها!

أما أهل القرية، جسر الزرقاء، وهم أخوال صاحبتي الطنطورية، فلم يمشوا أية خطوة، ولم يخرجوا أبدًا من قريتهم المنسية. وهذا سر بقائهم فيها. فلم تدر مذراة الرحيل الأول بوجودهم.

فظلوا يصطادون صغار السمك في مصب النهر، آمنين، سوي الطنطورية.

كيف كانت التماسيح تعيش في نهر الزرقاء

ففي أوائل الخمسينيات، لما أتيتهم أصطاد السمك بين الصخور المشرئبة بعيدًا في عرض البحر علي مصب نهر الزرقاء، الذي كانت تعيش التماسيح فيه فسماه إخواننا اليهود باسمها، نهر التنين، وهي التماسيح، مع أن شيئًا لا يعيش فيه الآن غير البوري الصغير وأفاعي النهر.

رأيتهم ينزلون عراة إلي مصب النهر قبل أن تنزل الشمس في مغرب البحر، فتية وفتيات سمرًا، أجسامهم برونزية وأبنوسية، ضامرة من غير صناعة، فينتظمون صفوفًا متوازية علي عرض المصب. فيتقدمون صوب البحر وأيديهم في الماء يخرجونها، بين الحين والحين، تمسك بأسماك تتلوي. فيقذفونها نحو الشاطئ. فيتناولها نسوة يأسرنها في أكياس أعدت لهذا الغرض.

سوي صاحبتي الطنطورية، شقراء مثل روميات بيزنطية، فكانت تنتحي مكانًا قصيًا.

فتقف لوحدها تراقب هذا الصيد العجيب ولا تشترك فيه إلاّ بنظرات رانية تفيض بالحياة، وبشفتين تسجلان، برعشات الابتسامات الحيية، رعشات السمك وهو يقذف نحو الشاطئ.

وكانت في عمر الفتيان والفتيات، أربعة عشر عامًا أو خمسة عشر عامًا، جديدة جدة الفجر في هذه النواحي، إلاّ أنها اختلفت عنهم في عزلتها، وفي لون بشرتها الأبيض المشوب بالصفرة.

ولما كنت أعلم أن الأولاد الآخرين هم ذرية المصريين من الوجه القبلي، الذين حملهم إبراهيم باشا معه إلي فلسطين، فأقاموا في جسر الزرقاء وفي غيرها من قري هذا الساحل، قلت في نفسي: لعل هذه الصبية الشقراء المنفردة، هي من أصل جارية رومية، فتربطنا صلة القربي في أصل شجرة واحدة؟ فأخذت أراقبها لمآرب تاريخية ولمآرب أخري.

فلما نبهها وجودي، فغضت الطرف، فانعكست حمرة الشفق علي صفحة وجهها الطبيعي، فكشفت عن عينيها أجفان الخجل، فرأيت الحيرة والدهشة وقبلة الحياة ترقص فيهما دبكة شمالية، أيقنت أنني هالك الساعة!

أستعيد هذه الذكريات، الآن يا محترم، وقد أقفر قلبي من هذا العرس. لم تبق الطنطورة، ولم تبق الطنطورية. أما قوم جسر الزرقاء فقد ارتدوا ثيابهم ولحقوا، في العمل البري، جيرانهم الفرادسة. ولم يعد ينزل منهم إلي النهر أو يقف علي لسان البحر، سوي فتيان هاربين من مدرسة أو شيوخ هاربين من بقية حياة. ولولا الحركة المباركة، التي قامت بها جمعية الرفق بالطبيعة، فحالت دون السلطة وإقامة المحطة الكهربائية، التي أزمعوا إقامتها علي مصب النهر، لما بقي

اسمي – سعيد – محفورًا علي كتف الصخرة الجيرية التي كانت الطنطورية تتكئ عليها ونحن نخيط، بالعيون، وشائج المستقبل.

باقية – التي أشركته في سرّها قبل أن تصبح شريكة حياته

ففيما أنا عائد، في إحدي الأماسي، وقد أقفر المكان. اتكأت علي هذه الصخرة، فرأيت اسمي محفورًا علي كتفها. فأدركت أن هذه الصبية أشجع من هذا الصبي، وأنها استدرجت أقرانها، الذين كنت أوزع صنارات الصيد عليهم درءًا لشرهم، حتي أخبروها باسمي.

فعلمت أنها تحبني. فأحببتها. وقديمًا علمت بأنني واقع لا محالة، في حب التي تحبني. وليتني أدركت منذ تلك اللحظة، أن شجاعتها غير مألوفة. ولكنني كنت غريقًا علي كتف الصخرة الجيرية.

فأغدقت الصنارات وخيوط النايلون علي صبي كان يلبي طلبي فينزل إلي البحر يفك صنارتي من صخرة علقت بها. فسألته:

ما أمر هذه الصبية فلا تشاركك صيدكم ولهوكم؟

قال: (الطنطورية)؟

ثم حدثني بما يعرفه عنها. فإذا هم لا يعرفون لها اسمًا سوي الطنطورية، لأنها من الطنطورة. وقال: إنها كانت في زيارة أخوالها في جسر الزرقاء حين سقطت الطنطورة ورحل أهلها. فبقيت في جسر الزرقاء.

وقال: هي مدنية، وتتكبر علينا.

وقال: أمرها عجيب. فهي إما أنها تبتسم وإما أنها تبكي. فأصبحنا نخافها، ونتحاشاها. غريبة وتقرأ كتبًا وتبتسم لوحدها وتبكي لوحدها.

فلما طلبت منه أن يسأل عن اسمها وعن أخوالها وأن يعود، في الأسبوع القادم، فيخبرني، عاد مع أقرانه وأخذوا يرجمونني بالحجارة. ولم تعد الطنطورية تتكئ علي صخرتها. ولم أعد أجرؤ علي زيارة ذلك الشاطئ.

فاحتبست في غرفتي، في اتحاد عمال فلسطين، مهمومًا: هل ستضيع الطنطورية عليّ كما ضاعت (يعاد)؟..

فإذا بمعلمي يعقوب يهرول ويصرخ: ما كنت تفعل في جسر الزرقاء؟

قلت: أتبع هوايتي بصيد السمك.

قال: فما يعنيك من بنات البلد؟

قلت: لم أكن أعرف أنها شيوعية!

فانفجر يعقوب بالضحك، فانفجرت معه بالضحك.

وقال إنه يضحك من سذاجتي. فلا خطر من ظهور أي شيوعي في هذه القرية ما دام أهلها معزولين بالرمل وبعتمة الليل وبخيوط العنكبوت.

– خيوط العنكبوت؟

– إنهم حمولة واحدة، تنتشر فيهم أواصر القربي انتشار خيوط العنكبوت.

– والطنطورية؟

فأخبرني بما كنت أعرفه عن أصلها. وأضاف إلي ذلك أن أخوالها (من جماعتنا) مع أن اسمها الحقيقي هو (باقية). وقال: هذا هو الضد وضده.. ولكنها طفلة.

ووعدني بأن يدبر لي أمرها إذا استيقظت قبل الفجر وقمت إلي عمال القري، الذين يبيتون في خرائب حيفا، فأيقظتهم، قبل الفجر، علي خطر الشيوعيين. فوعدته خيرًا. وأخذت أبيت معهم، فيتركونني أغط بالنوم ويسعون في طلب الرزق.

حتي وقعت انتخابات الكنيست الثانية، في تموز عام 1951، فإذا بالشيوعيين ينالون ستة عشر صوتًا في جسر الزرقاء. فأقبل علي يعقوب، هاشا باشا، وهو يهتف: البشارة، البشارة. لقد قرر الرجل الكبير (ذو القامة القصيرة) أن يصوبك نحو جسر الزرقاء، فتستأصل شأفة هذه الأصوات النشاز.

كيف؟

– بأن نزف إليك (باقية).

وما انقضي شهر تموز حتي زفت إليّ (باقية). فلما خلونا إلي بعضنا، وهمست في أذنها: يا شريكة حياتي.

قالت: أشركك، أولاً، بسري الدفين.

كيف أصبح سعيد (ذا السرّين)

في تلك الليلة سمعت من (باقية) ما لم يسمعه عريس ليلة الدخلة، وما لم يسمع عن صبية في عمرها.

قالت (باقية): اسمع، يا ابن عمي! أحببتك! فبرأس أمي وبرأس أبي أحببتك. وإني أحبك يا ابن عمي. ولكنني ما أحببتك تبعث بهؤلاء الناس يطلبون يدي من خالي.

واسمع، يا ابن عمي! صغيرة أنا. أصغر من السن القانونية للزواج. ولكنني أعرف أن واضعي القانون يتجاوزونه حين تكون لهم من وراء ذلك مآرب أخري. فما هي مآربهم؟

دعني أتكلم، يا ابن عمي، ولا تقاطعني.

ظللت أحبك حتي أحببتني. وها أنا أصبحت عروسك، شريكة حياتك. ها نحن نعمر بيتًا واحدًا.

أصبحت أملي، يا ابن عمي. وأنا أريد العودة إلي خرائب قريتي الطنطورة، إلي شاطئ بحرها الساكن. ففي كهف في صخرة تحت سطحه يسكن صندوق حديدي، مليء بذهب كثير، مصوغات جدتي ووالدتي وأخواتي ومصوغاتي، وضعه والدنا هناك، وأخفاه، وأعلمنا بأمره حتي يلتجئ إليه كل محتاج منا إليه.

أريدك، يا ابن عمي، أن تتدبر أمرنا حتي نعود إلي شاطئ الطنطورة، خلسة، أو أن تعود وحدك، فتنتشل الصندوق من مخبئه، فيغنينا ما فيه عما أنت فيه. وأنا لا أريد لأولادي أن يولدوا محدودبين. لقد تعودت ألاّ أتنفس إلاّ بحرية يا ابن عمي!

وكنت لا أكاد أتنفس وأنا أستمع إليها، إلي هذه الصبية تتكلم بجرأة جعلتني أطبق فمي حتي أحفظ قلبي في مكانه.

فلما بلغت هذا المبلغ من حديثها ظهرت لي الحقيقة التي كان جهلي بها يثير عجبي من أصحابك، يا محترم، كيف يستأسدون علي السلطة الجبارة، ولا يهولهم رجل كبير حتي ولو لم يكن قصير قامة، مع أنهم لا يملكون شروي نقير.

أدركت سركم، يا أستاذ! فكل واحد منكم، إذن، لديه صندوق حديدي، في طنطورته، حيث أخفي والده كنزه الذهبي.

فلما أدركت أنني، بهذا الكنز، أصبحت واحدًا منكم دون أن تعلموا من أمري شيئًا، انشال هم عن صدري.

وأعجب ما أعجبني منكم أنكم قدرتم علي إخفاء هذا السر، علي الرغم من أنه سر شائع بين الألوف، بل عشرات الألوف منكم. فقلت في نفسي: إذا استطاعوا ذلك فكيف لا أستطيعه وسري لم يجاوز الاثنين، (باقية) وأنا؟

فقمت إلي (باقية) أطمئنها علي أمانتي، وعلي رجوليتي، وأخذت أمزج دموعها بدموعي، وهو أضمن للزواج حتي من امتزاج الدم في عروق البنين، حتي هدأت واطمأنت وأصبحت شريكة حياتي.

ومنذ تلك الليلة رحت ألقب نفسي بذي السرين: سري وسركم. أما معرفتي بسركم فقد خففتني. وأما معرفتي بسر (باقية) فقد أخافتني.

كيف أصبح سعيد صاحب دعوة

قلت لها: نامي، الصباح رباح. ولكنني لم أنم. فقد أدركت أن طريقنا إلي الكنز محفوف بالمخاطر. فإذا لم أتدبره مليًا وقعنا. فلا كنزًا انتشلنا ولا سرًا حفظنا.

فإذا كان البيت الذي شيده أخي، علي شاطئ تل السمك، أصبح ملك حكومة الرجل الكبير، ذي القامة القصيرة، فكيف بصندوق في البحر، علي أمتار من الشاطئ، أي في مياه إسرائيل الإقليمية قطعًا؟

وكانت (باقية)، مثلي، تدرك أن الأمر محفوف بالمخاطر. بل إنه محفوف بأشد المخاطر. بل حسبت أن العرب الذين بقوا في إسرائيل هم، أيضًا، ملك الدولة. قالت إن المختار أخبرهم بهذا الأمر، إنهم أخبروه به.

وكنت، في إحدي الليالي، سألتها: ألم يكن لأخوالك أرض في جسر الزرقاء؟ فأجابت: بلي. ولكن الحكومة استولت عليها كما استولت علي بقية الأراضي في جسر الزرقاء.

فسألتها: ألم يرفع أخوالك أمرهم إلي القضاء؟

فأبدت دهشتها. وقالت: قال لنا المختار أنهم قالوا له: حاربتم فانهزمتم، فأصبحتم، وأموالكم، حلالاً لنا. فبأي قانون يطالب المغلوب بحقه؟

فما انتبهت إلاّ وأنا أهتف: ها، ها! الآن فهمت حرص الرجل الكبير علي منع الشيوعيين عن دخول قريتكم أو عن دخول أمثالها من القري التي عزلتها الطبيعة. فإذا لم تعزلها، سيجوها بالأسلاك!

ولات ساعة مندم. فقد فتحت باقية عينيها الواسعتين وأمطرتني بالأسئلة:

– من هم الشيوعيون؟

– ناس يكفرون بالنعمة.

– أية نعمة؟

– نعمة الغالب علي المغلوب بالحياة.

– هذه نعمة ربنا.

– فيكفرون بربنا. إنهم ملاحدة.

– كيف يكفرون؟

– يدعون القدرة علي تغيير المكتوب.

واستعذت بالله. ولكنها ازدادت تلهفًا وإلحاحًا:

– كيف يقدرون علي ذلك؟

– لعلهم وجدوا، مثلما وجدنا، صناديق تركها لهم آباؤهم مخبوءة علي شطئان طنطورتهم.

فهيج هذا الجواب خاطرها، فأبرقت عيناها، وحزمت ما بين حاجبيها فحزمت أمرها، وهي تقول: نستعين بالشيوعيين!

الإشارة إلي الحرمان الذي فرضه الفاتيكان، في أوائل الخمسينيات، علي الشيوعيين، فانتشرت شائعة في حيفا أن الشيوعيين قرروا معط لحية الخوري ولذلك حرمتهم الكنيسة.

ولما لم يبق لي والدي، رحمه الله، من متاع الدنيا غير الحذر، فقد جعلت أحمل إليها هذا الميراث صبحة وعشية. فقلت لها: قال والدي، رحمه الله، أن الناس يأكلون الناس، فحاش أن تثق بمن حولك من الناس، إنما عليك أن تسيء الظن بكل الناس، حتي ولو كانوا إخوتك من بطن أمك ومن ظهر أبيك. فإذا لم يأكلوك فقد كانوا يستطيعون أن يأكلوك.

وغير ذلك من كلام الحيطة واليقظة حتي أغفت علي ساعدي. فقعدت متيقظًا طول الليل وأنا أفكر في أمر الصندوق وانتشاله.

حكاية الثريّا التي رجعت تسفّ الثري

وبعد عشرين عامًا، لما قرأت عن كنز العجوز اللداوية ثريا عبد القادر مقبول، كيف أضاعته لسلامة طويتها، أي لسذاجتها، أيقنت أنني أحسنت صنعًا لما لم أبق عنصرًا من عناصر الخطر والفجاءة إلاّ حسبت حسابه، واحتطت له حيطة شديدة، حتي بقي سري دفينًا ما كشفت عنه إلاّ الآن، ولك يا محترم.

ففي العاشر من أيلول، من العام الخامس ب. ح ، الموافق عام 1971م روت صحيفتكم الاتحاد، عن معاريب، عن هآرتس، عن الشرطة الإسرائيلية العامة، عن شرطة اللد الإسرائيلية، أن السيدة العجوز ثريا عبد القادر مقبول، السن خمسة وسبعون عامًا، عادت من الأردن إلي بلدها ومسقط رأسها، مدينة اللد، بموجب نظام العطلة الصيفية عبر الجسور المفتوحة. وذلك بعد أن ظلت بعيدة عن بلدها ثلاثة وعشرين عامًا لاجئة في عمان مع زوجها وأولادها.

عاشت في عمان مع زوجها وطفلها وأبي عمرة الذي رحمها فلم تنجب منه أطفالاً. حتي شب ولداها، فسعيا إلي الكويت في طلب الرزق. فعادا بحفنة نفط أحمر، شيدا بها بيتًا في عمان، شيعا منه والدهما إلي مقره الأخير. ثم أقبل أيلول الأسود، عام 1970، علي صورة دبابة هاشمية نقية تقية من طراز شيرمان، هدمته فلم يخرج من تحت الأنقاض سالمًا سوي الثريا وطويتها السليمة.

فلما وقفت ثريا عبد القادر مقبول بين الأنقاض في صحراء الغربة القاحلة، تذكرت عزها الدارس في فردوسها المفقود، في بيتها العامر في اللد. وكانت خبأت مفتاحه في نقره في الجدار. وكانت جمعت مصوغاتها في صفائح دفنتها في ذلك الجدار. وكانت توكلت ونزحت مع النازحين عام 1948، وهي تؤكد لنفسها: غدًا أعود.

فلما أقبل هذا الغد، بعد ثلاثة وعشرين عامًا، أزمعت أمرها. وفي الصيف عبرت الجسر المفتوح. فضيعت اللبن.

ولما أرادت أن تدخل بيتها القديم في اللد لتنتشل كنزها، أغلقت وريثتها الشرعية، من عهد نوح، الباب في وجهها. فلم تفاجأ حيث إن ظلم ذوي القربي أشد مضاضة.

فنصحها ذوو القربي، المقيمون في إسرائيل، أن تلتجئ إلي قبضة الأمن وعسس النظام، أي إلي الشرطة الإسرائيلية. فعملت بالنصيحة. فأرسلوا معها رجل شرطة ورجلاً قيمًا علي أراضي إسرائيل. فلم يشاؤوا أن يقلقوا راحة الوريثة الشرعية، فأتوا منزل العجوز من خلف جداره، في منزل يقيم فيه ذوو قربي. فأحسنوا وفادتها. فأشارت إلي مكان في الجدار، فحفروا عميقًا. فوجدوا

صفائح المصوغات. ثم أشارت إلي مكان آخر. فحفروا. فوجدوا المفتاح. فهللوا وكبروا واغرورقت عيون الجمع. ومسح الشرطي دموع رجل القيم بمنديله. فقوم القيم إنسانية رجل الشرطة تقويمًا عاليًا، فمسح دموعه بمنديله. وتعانق العرب واليهود. وتعايشا بدموع الفرحة والامتنان والإنسانية. فأبلغوا رجال الصحف. فنشروا الخبر. وأذاعته الإذاعة. وكم من معلمة في روضة أطفال، في تلك الأيام المشهودة، روت هذه الحكاية علي أطفال الروضة، عن شرطة إسرائيل التي تبحث عن كنوز الأمهات الثكالي العربيات وتبحث عن الأطفال اليهود الضائعين، ولا يغمض لها جفن.

ولكن، حين مدت الأم الثكلي (الثريا)، يدها لتطول مصوغات عرسها، ناولها رجل القيم علي أراضي إسرائيل (شهادة بالذهب، وأخذ الذهب وذهب. وأما الثريا فأخذت (شهادة الذهب) وذهبت، عبر الجسور المفتوحة، راجعة لتسف الثري في مخيم الوحدات ولتدعو بطول البقاء لذوي القربي ولأولاد عمهم.

أما أنا فقد علمتني التجارب ألاّ أحسن النية، وأن أبقي الطوية مطوية، علمًا بأن بطاقة اتحاد عمال فلسطين لا تنفعني إلاّ حين لا أنفع غيري، أو أن يعود النفع علي الرجل الكبير، ذي القامة القصيرة، الذي لا ينفع أحدًا.

فلما نقلت متاعي من بيت إلي بيت أصلح للزوجية، من وادي النسناس في حيفا الذي لا يصلح لعشار البهائم، إلي شارع الجبل، ودفعت ثمن المفتاحية، أو خلو الرجل، حتي لم يبق معي ما أستأجر به دابة لنقل متاعي، فنقلتها راجلاً، إذا بسيارة تقف فجأة أمامي. فينزل منها تأبط شرًا. فيستل من تحت إبطه قلما وورقة ويقول:

– نحن (وهو وحده!) من الحارس علي أملاك العدو.

فاستللت بطاقة اتحاد عمال فلسطين من جيب المؤخرة، وهتفت: نحن معكم!

قال: لا، لا. أريد شهادة تثبت أن هذا المتاع هو متاعك، ولم تسرقه.

فأسقط في يدي. فأعدت البطاقة إلي جيب المؤخرة. فأسقط في المؤخرة: متي حفظ الناس شهادات تثبت أن متاع بيتهم هو متاع بيتهم ولم يسرقوه؟ فخفت علي بنطلوني.

قال: لا، لا. هذا متاع بيت عربي.

وكان هذا القول قولاً صحيحًا.

فقال: فقد أصبح ملك الدولة.

قلت: كلنا ملكها.

فلم ينج متاعي من ملك الدولة حتي استدعينا يعقوبا فأقنعه بأنني، أنا أيضًا، ملك الدولة. فحملت المتاع إلي بيتي الجديد وأنا غير مقتنع بأن الحارس كف شره عني. فكنت، كلما عسكر ليل، فطرق طارق بابي، أقوم مذعورًا وأنا أهجس بجاء الحارس ليضع اليد علي متاعي.

فلما أشركتني شريكة حياتي، باقية الطنطورية، بسر كنزها، فأصبح سري الدفين، صار طرق ابن الجيران علي الباب، ليدعونا إلي زفاف أخته، يلقينا من الفراش علي أقدامنا مذعورين ونحن نتهامس: لقد علموا!

ولكنهم لم يعلموا.

حكاية السمكة الذهبية

فمنذ أن أصبح سر باقية سري، أصبحت الحذر مجسمًا يمشي علي اثنتين. فلما أدركت أن الحذر هو من ذوات الأربع، رحت أمشي علي أربع.

فلما أنجبت باقية طفلنا البكر، فأرادت أن تسميه باسم والدها النازح (فتحي)، فرفع الرجل الكبير، ذو القامة القصيرة، حاجبيه فوق المكتب تساؤلاً، سميناه (ولاء). ولما أدركت أن تحديد النسل هو من مقومات الولاء لم ننجب غيره. وكنت، كلما أثقل السر عليّ، أطلق لساني بإعلان الولاء في محله أو في غير محله. وكنت أعتبر نفسي باطنيًا حتي أرسلونا في وفد إلي أوروبا وحملونا قبعات (تمبل) لنهديها إلي إخواننا اليهود هناك، مع أحاديث اللبن والعسل وتزويج العوانس وإشفاء السرطان، فأهديتهم قميصي وبنطلوني وثيابي الباطنية. ولم أحتفظ إلاّ بسري الدفين.

وطول هذا الوقت كنت أختلي بباقية تغمغم همسًا بأحسن الطرق إلي انتشال الصندوق. حتي تواضعنا علي كلام غريب لا يفهمه سوانا.

وكنت كلما وقفت أمام زملائي في الصنعة، فدهمني التفكير بالسر وشعرت به يحاول أن يقفز من عيني، أغمضهما حتي لا يقفز. حتي لبستني هذه الآفة، فصارت جفوني ترفّ، أغمضهما وأفتحهما. فقالوا: بالوراثة. فقلت: هذا جناه عليّ جدي لأبي. رحمهما الله. وما كنت كاذبًا.

ولما كان أكثر كلامنا أن في العجلة الندامة وفي التأني السلامة، فقد ظل (ولاء) يحبو متأنيًا حتي بلغ الرابعة من عمره. فاصطحبته إلي شاطئ الطنطورة إمعانًا في التعمية. وشجعته علي صيد السمك.

وكنت، أجلسه علي صخرة في لسان البحر. فيرسل خيطه. فأخلع ثيابي وأنزل البحر طالبًا منه أن يناديني إذا أقبل مقبل. ثم أسبح بعيدًا نحو الجزيرة القفراء الصغيرة، في عرض البحر أمام خرائب الطنطورة. فأغوص ما وسعني الغوص في كهف معتم تحت الصخر، في المكان الذي أرشدتني إليه باقية، فلا أجد سوي سمك يفر أو طحالب لاصقة. ولم أجرؤ علي المضي بعيدًا في الكهف.

حتي أسمع بكاء ولدي ولاء، وقد استوحش. أو أسمع نداءه. فأخرج إلي السطح فأري عاشقين يتعانقان علي الشاطئ. فأعود أدراجي، ويمضيان في ذلك.

وكان ولاء يلح عليّ سائلاً: عمَّ تبحث يا أبي؟

فأجيبه: عن السمكة الذهبية.

وأحكي له ما علق في ذهني من حكايات ألف ليلة وليلة. وأسرح به مع خيالي الباحث عن الكنز الذهبي منذ جدنا الأكبر، أبجر بن أبجر.

– فهل ستجدها يا أبي؟

– إذا ثابرت علي الغوص، ولم تفش السر، فسوف نجدها.

– فهل وجدها آخرون، يا أبي؟

– لا بد أن يكون آخرون وجدوا سمكاتهم الذهبية.

– فإذا وجدناها، ماذا سنفعل بها، يا أبي؟

– مثلما فعل بها الآخرون.

– فماذا فعل بها الآخرون، يا أبي؟

– لم يطلعوني علي سرهم.

فكان ينصرف إلي ما هو فيه من لهو أو من صيد. أو كان يعلن أنه يرغب في العودة إلي البيت. فنعود.

وما كنت أعلم أنه يعود لكي يختلي بوالدته. حتي أقبل يوم اقتعدنا فيه هذه القعدة علي شاطئ الطنطورة فإذا به يفاجئني بالسؤال:

– لماذا، يا أبي، تخاف من أن يراك الناس وأنت تبحث عن السمكة الذهبية؟

– حتي لا يسبقوني إليها.

– فإذا وجدتها، يا أبي، وعلمت الحكومة بالأمر، هل ستأخذها منا كما أخذت الطنطورة من جدتي ومن جدي؟

– من أدخل هذه الأفكار إلي رأسك، يا ولد؟

– ماما؟

وفي تلك الليلة بقينا نتشاجر همسًا، باقية وأنا، كي أقنعها بأن تبقي الكنز سرًا عن ثالثنا، وأن نعلمه أن لا يفرط في كلامه، وأن يحبس لسانه، وأن يحذر الحذر كله، وألا يتكلم في هذه الأمور إلاّ همسًا، حتي طلع الفجر.

فما انتبهنا إلاّ وهو يدخل علينا، يمشي علي رؤوس أصابعه، ويضع سبابته النحيلة علي شفتيه المزمومتين، وهو يهمس:

– جاءت اللبانة!

بحث عجيب في الخيال الشرقي وفوائده الجمّة

لا لا، يا معلم. ليست حكاية السمكة الذهبية. وليست غيرها من حكايات ألف ليلة وليلة، هي السبب في ضياع ولدي، وحيدي، ولاء. فلو انطلق هذا الخيال الشرقي المكبوت، الذي تنفس بألف ليلة وليلة، لعانق النيرين.

ما قولك بالفلاح المسكين، الذي خاف علي عروسه من كلام الناس، فوضعها في صندوق حمله فوق ظهره وقام يحرث أرضه وهي فوق ظهره يومًا يومًا.

فلما التقاه الأمير بدر الزمان، فسأله عن سبب هذا الصندوق محمولاً فوق ظهره، فأخبره، فأراد الأمير أن يري بعينيه، فأنزله وفتحه، فإذا بعروسه مضطجعة، في الصندوق فوق ظهر زوجها، مع الشاب علاء الدين، أليس في الأمر عبرة يعتبرها مصدقو النهاشات في الأعراض، المحمولات، صونًا، علي ظهور رجالهن في صناديق؟

ولولا هذا الخيال الشرقي هل استطاع عربك، يا معلم، أن يعيشوا في هذه البلاد يومًا واحدًا؟ فأنت، في كل سنة في عيد الاستقلال، تري العرب يرفعون أعلام الدولة ابتهاجًا، أسبوعًا قبل العيد وأسبوعًا بعد العيد. وتتزين الناصرة بأكثر مما تتزين تل أبيب من أعلام خافقات. وفي وادي النسناس، بحيفا، حيث تآخي العرب واليهود الفقراء، يعرف بيت العربي من بيت جاره اليهودي بأعلام الدولة الخفاقة فوق بيت العربي فحسب. أما بيت اليهودي فحسبه أنه يهودي. وكذلك السيارات في عيد الاستقلال، تعرف قومية صاحبها بأعلامها الخفاقة. فلما سألت أحد أبناء قومي عن السر في هذا الأمر، أجاب: خيال يا أخ! هؤلاء أوروبيون خيالهم باهت، فنرفع الأعلام حتي يروا بعيونهم.

قلت: فلماذا لا يرفعون الأعلام هم أيضًا؟

قال: خيال، أيضًا، يا أخ! هم يعرفون أن خيالنا شرقي، نفاذ، نري به ما لا يري. فنري الأعلام وهي مطوية في الصدور. ألم يحاول المرحوم أشكول أن يحول الحكم العسكري إلي شيء يري ولا يري، فرأيناه، علي الرغم من ذلك، في أوامر الإقامة الجبرية وفي أخاديد الجروح في خدودنا؟ خيال، يا محترم.

والشاب العربي، الذي صدم بسيارته سيارة أخري في شارع ليلينبلوم في تل أبيب، ما كان ينقذه سوي خياله الشرقي؟ نزل من سيارته وهو يصرخ: عربي، عربي! فتلهي الناس بضرب الضحية حتي ولّي أخونا الأدبار.

والندل شلومو، في أفخم فنادق تل أبيب، أليس هو سليمان ابن منيرة، ابن حارتنا؟ ودودي، أليس هو محمود؟ وموشي، أليس هو موسي بن عبد المسيح؟ فكيف لا يرتزق هؤلاء، في فندقٍ أو في مطعم أو في محطة بنزين، لولا الخيال الشرقي وحكاية السمكة الذهبية، وجبل المغناطيس، في وسط البحر الهائج، فلا تستطيع أن تشق عبابه بقاربك إلاّ إذا امتنعت عن ذكر الله، سبحانه وتعالي، علي لسانك مهما يمج الموج وتعصف العاصفة؟

وهل غير ألف ليلة وليلة نفع تلك القرية الصغيرة الخربة الوادعة، بالقرب من باقة الغربية في المثلث الصغير، حين جاءوا إليها في الانتخابات الثالثة وأمروها أن تمنع الشيوعيين، بالقوة، من عقد اجتماعاتهم في القرية وإلا فسوف يشردونهم، بالقوة، عبر الحدود؟

فلما أرسلني يعقوب إلي القرية، قبيل موعد الاجتماع بساعة، لأستطلع الأمر ولأضمن تنفيذ الضرب، دخلت القرية فما التقيت إنسانًا. فتنقلت بين بيوتها. فإذا أبوابها مفتوحة. فدخلت البيوت من أبوابها المفتوحة. فما وجدت حيًا سوي دجاجات سائبة. وأما الكلاب فأقعت في القيلولة.

فرحت أمشي مذهولاً، أتصورني الأمير موسي وقد دخل مدينة النحاس المسحورة، فإذا (لا حس فيها ولا أنيس. يصفر البوم في جهاتها. ويحوم الطير في عرصاتها. وينعق الغراب في نواحيها وشوارعها ويبكي علي من كان فيها)

حتي سمعت سعالاً في بيت من الطين. فولجته فإذا شيخ ضرير مقعد. فلما سمع وقع أقدامي قال: هل جئتم، يا شوعة؟

قلت كاذبًا: جئنا. فأين أهل البلد؟

قال: خرجوا جميعًا إلي تلة قريبة ليكفوا شر الحاكم وشركم عن هذه القرية. فاخرجوا، يا بني، فيعود أهلها إليها.

ولما استوضحته الأمر أبلغني أنهم اجتمعوا شوري بينهم فقالوا: لا نعرف هؤلاء الشوعة ولا يعرفوننا.. وليس بيننا وبينهم دم ولا ثأر. فإذا أراد الحاكم قتلهم فهو أولي بذلك منا وأقدر عليه. وإذا لم نقتلهم قتلنا الحاكم. فقرروا أن يهجروا القرية حتي ينقضي النهار.

قال: أما أنا فبقيت لأن العمي قتلني. فلا أَقتُل ولا أُقْتَل. فاذهب، يا بني، حتي ينقضي اليوم علي خير.

فمضيت إلي يعقوب بهذه البشارة. فصاح في وجهي: يا حمار. لقد فعلوها وأنت تحسبها بشارة؟ كل ما أردناه أن يفصل الدم بينهم، لا التلة!!

ولم أكن أحسبها بشارة بل أردت له أن يتوهم أنني أحسبها بشارة. أما ما كنت أفكر به فهو ما كان الأمير موسي يفكر به وهو يقرأ ما كان منقوشًا علي لوح الرخام الأبيض الأول في مدينة النحاس الميتة:

(أين ملك البلاد، وأذل العباد، وقاد الجيوش؟.. نزل بهم، والله، هازم اللذات ومفرق الجماعات ومخرب المنازل العامرات. فنقلهم من سعة القصور إلي ضيق القبور)، ثم وهو يقرأ ما كان منقوشًا علي اللوح الثاني:

(أين الملوك الذين عمروا العراق، وملكوا الآفاق. أين من عمروا أصفهان وبلاد خراسان؟ دعاهم داعي المنايا، فأجابوه. وناداهم منادي الفناء، فلبوه. وما نفعهم ما بنوا وشيدوا. ولا رد عنهم ما جمعوا وعددوا)

ولكنني لم أكن أبكي كما بكي الأمير موسي.

وهذا كان حالي حين كنت أقضي حاجة في المحكمة العسكرية بالناصرة. فإذا بطفل في العاشرة من عمره يخرج إلي الباحة مذعورًا يسأل الرجال عن أمر. فأشاروا صوبي. وكانوا يعرفون صنعتي وبطاقتي. فأقبل عليّ الولد وهو يقول: الحاكم يطلبك. فهرولت إلي القاعة مرفوع الرأس أن الحاكم يطلبني، فإذا المحكمة معقودة. وإذا الطفل يقول: هذا، يا سيدي، من أقربائي. فبهت، فنطق بالحكم عليّ بالسجن ثلاثة أشهر أو بفدية خمسين ليرة. كيف؟ قيل: لأن الطفل، الذي ادّعي قرابتي، سافر إلي حيفا بدون إذن عسكري بالسفر إلي حيفا. وحيث إن أصول الديمقراطية تحول دون حبس الطفل فقد قرروا حبسي

فلما صحت أنكر قرابته ألقي الحاكم علي الحضور محاضرة في رغبة الدولة في أن يتحلي رعاياها العرب، هم أيضًا، بالشجاعة الأدبية، وفي الدولة تحترم الذين لا يتنكرون لذوي القربي.

فلما أشهرت بطاقة اتحاد عمال فلسطين زجرني وقال: سأحيل أمرك علي رؤسائك كي يعلموك الشجاعة.

فنقدتهم خمسين ليرة وخرجت شجاعًا.

فبحثت عن الولد، قريبي، فإذا هو بين الرجال واحدًا منهم وقد ضحك ضاحكهم وقال: خيال، يا محترم، خيال!

أما خيال ولاء، ابني ووحيدي، فقد وجد متنفسًا آخر.

حادث أصعب علي التصديق من الموت علي الأحياء

ذلك أننا انشغلنا عن وحيدنا ولاء بصون السر وبالبحث عن الكنز في أعماق البحر، في خفاء أعمق منه غورًا.

حتي أصبح شابًا يافعًا غريب الأطوار. لا يتكلم إلاّ مضطرًا. فإذا تكلم انتشر كلامه انتشار غيوم الصيف التي تتخيلها كما يعن علي بالك: رؤوس حيوانات، أو فوارس علي أفراس وهي تشن الغارة، أو ملاك مسجي تحت قدمين.

فأقبل ذلك اليوم المشؤوم، من الخريف الأخير قبل الخريف الحزيراني المقيم. فإذا بضوضاء وجلبة تدهمني من كل جانب. وإذا بعسكر كثير يدخلون عليّ في مكتبي. وقد أشرعوا سلاحهم الناري. وعلي رأسهم الرجل الكبير وقد خلع نظارتيه السوداوين ولبس وجهًا أشد سوادا من القطران. وهو ينفض أطرافه وجوانحه. ووقف وراءه معلمي يعقوب، وقد طأطأ رأسه. ووراءهما وحواليهما العسكر. فأقعدتني المفاجأة عن القيام وأنا أحسب أن القيامة قامت.

وزاغت أبصاري، فرأيت صفوفًا متراصة من الرؤوس تتراقص في جدران الغرفة وعلي أرضها. وكنت أري هذه الرؤوس تتسرب من بين أصابع يدي، المشلولتين فوق المكتب. وكانت هذه الرؤوس تفغر أفواهها وتصرخ في وقت واحد بكلام لم ألتقط منه سوي شتائم عربية، أضحكتني صياغتها غير المألوفة، فضحكت، فأضحكني ضحكي، فأغربت بالضحك حتي تقطعت خواصري. ولم أثب إلي رشدي إلاّ بعد أن وثبوا عليّ فطرحوني أرضًا فاقد الرشد.

وظللت فيما يشبه الغيبوبة وهم يحاولون أن يهزوا دماغي المهزوز برواية أصعب علي التصديق من الموت علي الأحياء:

ولاء، ابني وحيدي، هذا الشاب الحيي الضئيل، الذي يأكل القط عشاءه، أصبح فدائيًا وأعلن العصيان المسلح علي الدولة!

وأنا المسؤول. وتلك الحية الرقطاء، الطنطورية، التي كان يجب أن ترحل مع أهلها، مسؤولة. ومعلمي يعقوب مسؤول. هذا الحمار الذي أعماه شرهه الشرقي، إلي طعامي الشرقي، عن واجب اليقظة. ولا ريب أننا تآمرنا، (كلكم، كلكم)، علي الرجل الكبير، ذي القامة القصيرة، حتي نخرب بيته. (ولكنني سأخرب بيتكم)!

أما الدولة فتعرف كيف تحفظ أمنها، وتضرب حتي لات ساعة مندم.

فقد استطعت أن أجمع، بين الشتيمة والشتيمة والغيبوبة والغيبوبة، شتات رواية أشبه بحكايات المردة والجن والعفاريت، عن حياة أخري من حيوات وحيدي ولاء.

أنه أنشأ، مع اثنين من زملاء الدراسة، خلية سرية. فانتشلوا من كهف، في غور صخري في بحر الطنطورة المهجور، صندوقًا محكم الصناعة والإقفال، لا يدخله ماء ولا تناله رطوبة، فيه سلاح وفيه ذهب كثير.

– باقية، يا باقية، أهذا ما اتفقنا عليه؟

– سعيد، يا سعيد، أولادنا آمالنا!

فاشتروا سلاحًا وذخيرة ومتفجرات. وأقاموا مخزنًا وموئلاً سريًا في قبو مهدوم ومهجور في خرائب الطنطورة. فأرسلوا أحدهم إلي لبنان حتي يقيم الصلة بالفدائيين.

قال الرجل الكبير: فوصلناه بأيدينا. أمسكنا به وبالآخر.

أما ولاء فالتجأ إلي الموئل في القبو، وقد أجمع أمره علي أن يموت شهيدًا.

– فجئناك يا سعيد، يا ابن النحس، يا ابن المتشائل، كي تقوم وتمضي إليه فتقنعه بأن يرجع عما هو مقدم عليه من انتحار صبياني، شفقة بك وبأمه. ولم نأتك إلاّ لأنك رجلنا. فنريد أن نخدمك كما خدمتنا.

قم إلي بيتك فاصحب أمه، الطنطورية، وامضيا إلي خرائب الطنطورة قبل أن تصبح حياتكم كلها خربة واحدة. فإذا سلم منحناه الحياة، من أجل خاطرك. فإذا أبي إلاّ أن يفضحنا متم.

فلما لم أستطع القيام علي رجلي، حملوني حملاً، فتحاملت باقية علي نفسها وعلي دموعها. ولم أشأ أن أعاتبها صونًا للسر، حتي ألقوا بنا علي شاطئ الطنطورة. ووقف العسكر بعيدًا. وكانت الشمس ترنو إلي المغيب في أمسية جف ريقها وحنا شفقها علينا شفقة.

آخر الحكايات حكاية السمك الذي يفهم كل اللغات

ظل ما حدث في تلك الأمسية الخريفية، علي شاطئ الطنطورة المهجور، سرًا مصونًا من أسرار الدولة حتي يومنا هذا. ولكنني لا أعتقد أنهم سيحولون بينك وبين إذاعته بعدما جري منذ حزيران.

ولا أعلم ما دونوه في دفاترهم المحفوظة عما جري في تلك الأمسية: أما ما حفظته في صدري ولا أنساه جملة وتفصيلاً، فهو ما يلي:

وقفنا أمام القبو الخرب، الذي قالوا أن (ولاءً) مختبئ فيه بأسلحته ومتفجراته، فتكلمت (باقية):

– دعني له، فأنا أمه. ولم أحمله جنينًا فقط بل حملته سري، وحملته أملي.

فانتحيت جانبًا وجلست علي سور متداعٍ أنظر إلي البحر الساكن فلا أري، وأنظر إلي الشمس الغاربة فأشعر بالغربة.

واقتربت أمه من القبو المهجور، خطوة، ثم اقتربت منه خطوة أخري، ثم نادت عليه:

– ولاء، يا ولاء. بني لا تطلق الرصاص فأنا أمك! فأطبق صمت.

– لا جدوي من المقاومة، فقد كشفوا أمرك.

فأتانا صوته، وقد جعله العمق أجش، وهو يتكلم، كعادته، مضطرًا:

– كيف؟

– هم أرشدوني إلي مخبئك.

– لست بمختبئ، يا أماه. إنما حملت السلاح لأنني مللت اختباءكم. فأطبق صمت.

حتي عاد صوته يأتينا من الأعماق. فعجبت لهذا الصوت العميق كيف يحتويه صدره الضامر:

– يا امرأة، يا التي هناك، من أنت؟

– أمك أنا يا ولاء، فهل ينكر الولد أمه؟

– أمي، وتجيء معهم!

– بل أرسلوني، مع والدك، وحدنا يا ولاء... ها هو جالس علي بقية سور ينتظر إنقاذ بقيته.

– فلم لا يتكلم؟

– إنه لا يحسن الكلام.

فتنحنحت.

– ما الذي جاء بك، يا أماه؟

– أرسلوني كي أقنعك بأن تلقي سلاحك، فتخرج إلينا، فتسلم.

– لماذا؟

– قالوا: رحمة بي وبأبيك.

– قه، قه، قه..

– أتطلق الرصاص علي البطن الذي حملك؟

– بل أقهقه، يا أماه. أرأيت كيف أصبحوا يتحدثون عن الرحمة. فكيف بهم إذا لعلعت؟

فتنحنح العسكر.

– ولكنهم لا يرحمون أحدًا يا ولدي.

– فخفتهم؟

– خوفي عليك يا ولاء.

فأطبق صمت، حتي عادت تناديه:

– ولاء يا ولدي، ألق سلاحك واخرج!

– يا امرأة، يا التي جئت معهم، إلي أين أخرج؟؟

– إلي الفضاء الرحب يا بني. كهفك ضيق، مسدود كهفك. وسوف تختنق فيه.

– أختنق؟.. أتيت إلي هذا الكهف كي أتنفس بحرية. مرة واحدة أن أتنفس بحرية!

في المهد حبستم عويلي. فلما درجت أبحث عن النطق في كلامكم، لم أسمع سوي الهمس.

في المدرسة حذرتموني: احترس بكلامك! فلما أخبرتكم بأن معلمي صديقي، همستم: لعله عين عليك! ولما سمعت حكاية الطنطورة، فلعنتهم، همستم في أذني: احترس بكلامك!

فلما لعنوني:

احترس بكلامك!

وحين اجتمعت بأقراني، لنعلن إضرابًا، قالوا لي، هم أيضًا: احترس بكلامك!

وفي الصباح، قلت لي، يا أماه: إنك تتكلم في منامك، فاحترس بكلامك في منامك!.. وكنت أدندن في الحمام، فصاح بي أبي: غيِّر هذا اللحن. إن للجدران آذانًا، فاحترس بكلامك!

احترس بكلامك! احترس بكلامك!

أريد ألاّ أحترس بكلامي، مرة واحدة!

كنت أختنق!

ضيق هذا الكهف يا أماه، لكنه أرحب من حياتكم!

مسدود هذا الكهف يا أماه، ولكنه منفذ!

فأطبق صمت حتي سمعنا صليل أسلحة من بعيد، فهتفت به أمه:

– منفذ؟

الموت ليس منفذًا بل نهاية.

ليس في حياتنا ما يعيب حياتنا. فإذا استترنا فعلي أمل الخلاص استترنا. وإذا احترسنا فحرصًا عليكم.

أي عيب في الخروج إلينا، إلينا نحن يا ولاء، أبيك وأمك. وحيدًا لا تقدر علي شيء.

– أقدر عليكم.

– لسنا أعداءك.

– لستم معي.

– بني، احترس..

– قه، قه، قه.. قوليها، يا أماه: احترس بكلامك! لقد أصبحت حرًا!

– حرًا..

كنت أعتقد أنك حملت السلاح لتنتزع حريتك!..

فأطبق صمت حتي سمعتها تقهقه:

– لو كنا أحرارًا، يا ولدي، ما اختلفنا. لا أنت تحمل سلاحًا ولا أنا أدعوك إلي احتراس. إنما نحن نسعي في سبيل هذه الحرية.

– كيف؟

– مثلما تسعي الطبيعة في سبيل حريتها. فالفجر لا يطلع من ليله إلاّ بعد أن يكتمل ليله. والزنبقة لا تبرعم إلاّ بعد أن تنضج بصلتها. الطبيعة تكره الإجهاض يا ولدي.

والناس لا يتحملون ما أنت مقدم عليه.

– سأتحمل عنهم حتي يتحملوا عن أنفسهم.

– ولدي، ولدي،

هل هناك أجمل من وردة في عروة شاب؟ ولكن أمها لا تستطيع أن تمدها بالغذاء. دعني أضمك إلي صدري.

فأطبق صمت، حتي سمعته يتأوه:

– أماه، أماه، حتي متي ننتظر برعمة الزنابق؟

– لا تنتظر يا بني. إنما نحن نحرث ونزرع ونتحمل حتي يحين الحصاد.

– متي يحين الحصاد؟

– تحمل!

– تحملت عمري.

– فتحمل!..

– سئمت خنوعكم.

– لدينا فتية وفتيات لم يخنعوا. فاحذُ حذوهم! تحملوا أطول ليل، فحملوا الشمس فوق جباههم. ما استطاعوا إخراجهم من أرض إلاّ إلي زنزانة. وما هدموا عليهم بيتًا إلاّ بعد أن هدموا عليهم أسطورة..إنك يائس، يا ولدي.

– لا أري حولي سوي الظلام.

– في الكهف.

– حياتي كلها كهف.

– فأنت لا تزال في البصلة تتبرعم. اخرج إلي نور الشمس!

– أين مكاني تحت الشمس؟

– تحت الشمس.

– الدنيا بخير، يا ولدي. فكم من شعب انتزع حريته. وسيأتي موسمنا.

– أتظلين تحلمين بالجزر السبع وراء البحيرات السبع؟

– إنها جزرنا وبحارنا.

والسندباد، يا ولاء، كف عن رحلاته، وصار يبحث عن الكنوز في تراب أرضه.

– حياته علي أرضه لا تطاق.

– حين تصبح الحياة أرخص من الموت يصبح ما أصعب من بذلها أن نعض عليها بالنواجذ.

– ستموتين يا أماه، دون أن يعود أهلك.

– قبل أن يعود أهلي!

– كيف؟

– الزمن. دع الزمن يزمن.

– قه، قه، قه.

– أترميني بالرصاص؟ أتقتل التي خلفتك؟

– بل الزمن يقتل التي خلفتني ويقتلني.

– لا تستخف بالزمن، يا ولاء. فبدونه لا ينبت زرع فنأكل.

ولا تطلع شمس بعد مغيب..

فهل جاء؟

– سيجيء.

ولا يخرج سجين من سجنه.

– فهل خرج؟

– سيخرج.

ولا تعبر تجربة حتي يتعظ الناس.

– فهل اتعظوا؟

– هل تريد لجيل واحد أن يحسم في الأمر؟

– جيلي

– لماذا؟

– لأنه جيلي.

– بأي سلاح يحارب جيلك؟

فأطبق صمت.

حتي سمعتها تسأله، مثلما كانت تسأله، وهو طفل، أن يقبلها:

– أي سلاح في يدك الآن يا ولاء؟

– رشاش قديم من الصندوق.

فرأيتها تندفع راكضة نحو القبو المهجور، ويداها ممدودتان علي جانبيها، كجناحي طير يسرع إلي عشه ليحمي جوازله، حتي كادت تغيب في فتحته المعتمة. وإذا به يصيح فيجمدها في مكانها:

– إنهم قادمون وراءك، يا أماه. فهل تحمينهم بحبي؟

– لا يا ولاء، يا ولدي، بل آتية أنا إليك. ففي الصندوق رشاش آخر. وسأحميك بحبي.

وما أن غابت عن ناظري حتي اختلط الحابل بالنابل. ولم أعد أميّز الأشباح المندفعة من هنا ومن هناك. وقد تركوني لحالي. فما كنت أسمع سوي صراخ مكبوت وأوامر مبحوحة. وكنت أتقدم، ثم كنت أتأخر. وكنت أدور علي نفسي. وأسمع شتائم ولكنها لم تكن موجهة إلي شخصي.

وفيما يشبه الحلم، وقد غابت النجوم وكلح وجه القمر، رأيتهم يندفعون نحو البحر، فأسمع طشًا وأحس برش، وقائلاً يقول: غطسا هنا. وآخر يقول: من هنا. ولا أري الرجل الكبير بل أسمع صوته يمنعهم عن إطلاق أية رصاصة، ويحثهم علي الغوص.

ولم أكن موجودًا حين أحضروا الكشافات والضفادع البشرية. فقد تأبطني معلمي يعقوب، الذي وقف إلي جانبي، وأعادني في سيارته إلي بيتي المقفر.

وعادني، في اليوم التالي، وأمرني أن أبقي ما حدث سرًا مكتومًا فيعفي عني وأعود إلي عملي.

– بعد أن قتلتموهما؟

فأخبرني، وأنا مذهول بين مصدق ومكذب، إنهما استطاعا الفرار ولم يعثر لهما علي أثر.

وقال إنهما شوهدا يتجهان نحو البحر، الأم وولدها، هذه تحتضنه وهو يدعمها، حتي غاصا في البحر. ففوجئ العسكر بالأمر. ولكن الرجل الكبير منعهم عن إطلاق الرصاص حتي لا ينتشر الخبر. وهو موقن أنه سيلقي عليهما القبض، أو أن يموتا غرقًا. إلاّ أن البحث عنهما، في الليل ثم في النهار، لم يكشف عنهما حيين، ولم يكشف عن جثتيهما. فبقي مصيرهما سرًا غامضًا. ثم قال: ويجب أن يظل سرًا مصونًا من أسرار الدولة.

وكان يعقوب، في الأيام الأخيرة، شفوقًا بي. ولكنني لم أشأ أن أطلعه علي ما أعلمه عن الكهف في جوف الصخر في قاع البحر. وكنت أعتقد أنهما قررا الموت فيه.

وكم من مرة حاولت أن أستجلي الأمر، فلا تطاوعني نفسي. فإن بارقة أمل، بأنهما علي قيد الحياة، خير من أن أغرق هذه البارقة.

وكنت أذهب إلي شاطئ الطنطورة، وقد أصبح عامرًا بالمستحمين، فأقعد قعدة ولاء علي صخرته في لسان البحر، وأرسل خيطي، وأناديه بقلبي أن يرد عليّ.

فإذا بطفل يهودي وقد قعد إلي جانبي دون أن ألحظه يفاجئني بالسؤال: بأية لغة تتكلم يا عماه؟

– بالعربية.

– مع من؟

– مع السمك.

– والسمك، هل يفهم اللغة العربية فقط؟

– السمك الكبير، العجوز، الذي كان هنا حين كان هنا العرب.

– والسمك الصغير، هل يفهم العبرية؟

– يفهم العبرية والعربية وكل اللغات. إن البحار واسعة ومتصلة. ليس عليها حدود وتتسع لكل السمك.

– أوي فافوي

فيناديه والده فيخف إليه. فأسمعهما يتحدثان، فأهش فيهما وأبش. فيحسبني الطفل سيدنا سليمان ويشيران نحوي. فيبتسم والده. فيمران قريبًا. فأكبر في عينيه حتي يصر علي البقاء معي، فأعطيه من صيدي سمكة صغيرة. فيحدثها ولا تتكلم. فأقول له: إنها لا تزال صغيرة. فيرمي بها إلي البحر كي تكبر وتتعلم النطق. فأقول في نفسي: لو بقي الناس أطفالاً لما كبر ولاء ولما ضاع. ألم يكن الرجل الكبير في يوم من الأيام، طفلاً صغيرًا؟

ولقد عشت فيما بعد شهورًا وأنا موقن بأن إشارة ستأتيني منهما. فلا يطرق طارق بابي حتي أقوم ملهوفًا: لعله منهما.

ولما سمعت أن من بين كتائب الفدائيين كتيبة باسم الطنطورة، أخذت أقفل النوافذ وأستلقي علي فراشي وأنا أحتضن الترانزستور. حتي أقبل اليوم الخامس من حزيران فسمعت في ليلته الطويلة صوتًا جهوريًا يصرخ من تحت:

– أطفئ الضوء، أطفئ الضوء! فأطفأته ولم أنم .

الكتاب الثالث يعاد الثانية

صدرت في أواسط 1974

سعيد يجد نفسه فوق خازوق بلا رأس

كتب إليّ سعيد أبو النحس المتشائل، قال: جاءت النهاية حين استيقظت في ليلة بلا نهاية. فلم أجدني في فراشي. فزارتني البردية. فمددت لها يدي أبحث عن سترة فإذا بها تقبض ريح.

رأيتني جالسًا علي أرض صفاح. باردة مستديرة. لا يزيد قطرها علي ذراع. وكانت الريح صرصرًا والأرض قرقرًا. وقد تدلت ساقاي فوق هوة بلا قرار كما تدلّي الليف في الخريف. فرغبت في أن أريح ظهري. فإذا بالهوة من ورائي كما هي الهوة من أمامي وتحيط بي الهوة من كل جانب. فإذا تحركت هويت. فأيقنت أني جالس علي رأس خازوق بلا رأس.

فصرخت: النجدة! فجاءني بها رجع الصدي واضحة حرفًا حرفًا، فعلمت أنني جالس علي علو شاهق. فرحت أسلي وحشتي بمجاذبة الصدي أطراف الحديث. فكان الحديث طريفًا حتي افترت الهوة عن ابتسامة فجر أغبر كأنها العبوس.

فماذا أنا فاعل؟

فناديت عليّ قائلاً: هدئ من روعك، يا ابن النحس، واجعل أمرك شوري مع عقلك. فما الذي وضعك هذا الموضع، وهل من المعقول أن تنام في فراشك مساء فتستيقظ فإذا أنت علي خازوق؟ تأبي هذا الأمر نواميس الطبيعة وأحكام المنطق. فأنا، إذن، في حلم لا غير علي الرغم من أنه حلم طويل.

فما بالي أظل قاعدًا علي هذا الخازوق، تحزمني البردية ثم تنشرني لا ستر ولا ظهر ولا أنيس، ولا أنزل؟

هذا خازوق في كابوس لا محالة. كابوس عن خازوق. فإذا نزلت عن الأخير نفضت الآخر عن صدري فأعود إلي فراشي وأتغطي وأتدفأ. فكيف أتردد؟ أخوفًا من أن أهوي من هذا العلو الشاهق إلي قاع الهوة، كبطة أردتها رصاصة صياد بط، فأتوجع فأموت؟

ولكن موضعي هذا هو موضع الوهم علي خازوق الوهم. فهو فيما يراه النائم من أحلام تخالف نواميس الطبيعة وأحكام المنطق. فهيا، هيا احتضن هذا الخازوق بساعديك وبساقيك وبكل ما فيك من عزم وحزم وإرادة شديدة عند الشدة، ثم اهبط عليه وئيدًا كالسنجاب.

فأزمعت أمري. فحركت ليفتيّ المتدليتين أتحسس صفحته فإذا بها ملساء كجلد الثعبان باردة مثل

بروده. فأيقنت أنني لن أقوي علي التشبث بهذا الثعبان. وإذا نزلت عليه فأنا واقع لا محالة في القاع، فأدق عنقي فأتوجع فأموت. فأمسكت.

واتتني حكاية الساحر الهندي الذي ينصب الحبل فيظل يرتفع في السماء حتي يغيب رأسه في الغيم فيصعد عليه حتي يغيب ثم يعود ويهبط عليه فلا يتأذي بل يسترزق. ولكنني قلت: ما أنا بساحر هندي بل مجرد عربي بقي، سحرًا، في إسرائيل.

فأردت أن أصرخ: أنا في كابوس! ثم أن أقفز، فلا يمكن أن أموت!

ولقد صرخت. إلا أنني لم أقفز. فإذا كان موضعي هذا هو موضع الوهم فوق خازوق الوهم، وفيما يراه النائم في منامه من حلم أو من كابوس، فلن يدوم الأمر طويلاً قفزت أم قعدت. وسوف أستيقظ، لا محالة، فأجدني في فراشي متغطيًا متدفئًا. فما حاجتي، إذن، إلي مسابقة الساعات، وربما الدقائق والثواني، حتي لحظة اليقظة الآتية لا محالة؟

ما حاجتي إلي القفز إذا كان القعود سيقودني إلي النتيجة نفسها؟

وهزتني قشعريرة من البردية كادت أن تلقيني من فوق الخازوق لولا قشعريرة خاطر لم أستطع أن أكفه عني:

فكيف إذا كان هذا هو حقيقة وليس فيما يراه النائم من حلم أو من كابوس؟ أما القول بأنه مخالف نواميس الطبيعة وأحكام المنطق فلا يكفيني برهانًا علي أنه غير حقيقي. ألم تبحث عائلتي، عائلة المتشائل عن السعادة طي القرون في عجائب خارجة عن نواميس الطبيعة وعن أحكام المنطق؟ وإذا ظل أجدادي يدكون أعناقهم وهم يبحثون تحت أرجلهم عن الكنوز المطمورة، فها أنا قد وجدت ضالتي، وأنا أنظر فوق رأسي، في إخوتي الفضائيين الذين أعادوا إلي نفسي الطمأنينة فكيف ينتظر مني، من دون آبائي وأجدادي، وأنا فوق هذا الخازوق بالضبط، أن أسلم أمري إلي نواميس الطبيعة وأحكام المنطق؟

ولقد بقيت علي هذه الحال أترنح بين قشعريرة وقشعريرة، بردية تقيمني ومحتد عريق يقعدني، حتي التقيت (يعاد) مرة ثانية فشعرت بالدفء لأول مرة منذ ألف عام!

كيف أصبح علم الاستسلام، فوق عصا مكنسة،

علم الثورة علي الدولة؟

التقيت (يعاد) فيما يكون فيه اللقاء في إسرائيل – في السجن. والأصح أنني كنت خارجًا منه. أما كيف دخلت السجن فذلك حين أفرطت في الولاء حتي أصبح، في عرفهم، تفريطًا.

وذلك حين كنت أستمع، في ليلة من الليالي الست العفريتية، إلي الإذاعة العربية من محطة إسرائيل احتراسًا، فأتاني صوت المذيع وهو يدعو العرب المهزومين إلي رفع أعلام بيضاء فوق أسطحة منازلهم فيوفرها العسكر المارقون مروق السهام. فينامون في بيوتهم آمنين. فاختلط عليّ أمر هذا الأمر: أيهم يأمره المذيع – مهزوم هذه الحرب أم مهزوم رودس؟ قلت: انهزم أسلم عاقبة! وأقنعت نفسي بأنه إذا ظهر خطئي حملوه علي حسن نيتي وبياض طويتي. فصنعت من بياض فراشي علمًا أبيض علقته علي عصا المكنسة ونصبتهما علي سطح بيتي، في شارع الجبل في حيفا، ولاء الإفراط في الولاء للدولة.

ويا دلالة علي من تدلين! فما أن أشرف علي الناس هذا الشرشف حتي شرفني معلمي يعقوب بزيارة عاطل، أي خلوًا من السلام عليكم. فلم أرد التحية. وكان يصرخ: أنزله يا بغل!

فأنزلت رأسي حتي لامست قدميه وأنا أقول: هل عينوك ملكًا علي الضفة يا صاحب الجلالة؟

فأخذ يعقوب بتلابيبي – أي ببجامتي – وراح يدفعني علي الدرج نحو السطح وهو يشنشن: الشرشف، الشرشف! حتي بلغنا موضع المكنسة، فانتزعها، فحسبت أنه يريد أن يضربني بها، فتعاركنا راقصين رقصة العصا حتي تهاوي علي حافة السطح وهو يبكي ويقول: رحت يا صديق العمر ورحت معك!

فقلت إنني رفعت الشرشف علي عصا المكنسة ملبيًا أمر المذيع من محطة الإذاعة الإسرائيلية. قال: حمار، حمار!

قلت: ما شأني إذا كان حمارًا؟ ولماذا لا تستخدمون مذيعين سوي الحمير؟

فأفهمني أن المعني بالحمار هو أنا. أما مذيعو القسم العربي في محطة الإذاعة الإسرائيلية فكلهم عرب. ولذلك أساؤوا صياغة النداء فالتبس الأمر عليك، يا أحمق!

فدافعت عن بني قومي، الذين يعملون في محطة الإذاعة، قائلاً: ما علي الرسول إلاّ البلاغ. يهتفون بما يلقنون. وإذا كان رفع العلم الأبيض علي عصا مكنسة يسيء إلي جلال الاستسلام فإنكم لا تجيزون لنا حمل أي سلاح سوي المكانس.

وأما إذا كانت المكانس قد أصبحت، منذ اندلاع نيران هذه الحرب، سلاحًا أبيض فتاكًا لا يجوز لنا حمله إلاّ بإذن، كبارودة الصيد التي لا يؤذن بحملها إلاّ للمخاتير وللمدمنين علي الخدمة منذ الصغر، فإنني معكم أبًا عن جد. وأنت تعلم، يا صديق العمر، بإخلاصي المفرط للدولة ولأمنها ولقوانينها، ما هو معلن منها وما سوف يعلن!

وكان صديقي يعقوب يستمع إلي هذياني وهو مشدوه الفم لا يقوي علي كفكفة الدمع المنسكب علي وجنتيه فلا يقوي علي كفي عن الهذيان.

حتي تمالك جأشه فأوضح لي ما وقعت فيه من التباس قرر رئيسنا الرجل الكبير، ذو القامة القصيرة، أنه ليس التباسًا بل نفير بشق عصا الطاعة علي الدولة.

قلت: كلها عصا مكنسة!

قال: نداء المذيع. موجه نحو عرب الضفة، أن يرفعوا الأعلام البيضاء استسلامًا أمام الاحتلال الإسرائيلي. فما شأنك أنت في ذلك في حيفا، التي هي في قلب الدولة ولا أحد يعتبرها مدينة محتلة؟

قلت: زيادة الخير خير!

قال: بل إشارة إلي أنك تعتبرها مدينة محتلة، فتدعو إلي فصلها عن الدولة.

قلت: إن هذا التأويل لم يدر في خاطري أبدًا.

قال: إننا لا نأخذكم علي ما يدور في خواطركم بل علي ما يدور في خاطر الرجل الكبير. وهو يري أن العلم الأبيض، الذي رفعته علي سطح بيتك في حيفا، هو دليل علي أنك تقوم بحركة انفصالية عن الدولة ولا تعترف بها.

قلت: أنك تعلم علم اليقين أنني مفرط في خدمة الأمن ولا أفرط به.

قال: أصبح الرجل الكبير يعتقد بأن إفراطك هو تمويه علي تفريطك. ويستعيد الرجل الكبير أصلك وفصلك أدلة علي أنك تتغابي ولكنك لست بغبي. فلماذا لم تعشق سوي (يعاد)ولم تتزوج سوي (باقية) ولم تنجب سوي (ولاء)!

قلت: ألم يسأل الرجل الكبير لماذا لم أولد سوي عربي ولماذا لم أجد وطنًا سوي هذه البلاد؟

قال: قم معي واسأله.

ولكنهم أخذوني إلي غور بيسان وزجوا بي في سجن شطة الرهيب.

حديث شطط في الطريق إلي سجن شطة

لم يشأ الرجل الكبير إلاّ أن يصحبني إلي بيت خالتي فيسلمني إلي مدير السجن تسليم اليد باليد. فنحن، الذين ورثتنا الدولة عن آبائنا، تظل مراتبنا عالية ولو في قاووش السجن. كقولك نبيل فقد الحظوة في البلاط فأبعد إلي جزيرة سيشل.

أو هكذا أوهمت نفسي حتي أركبوني في سيارة البوليس المقفلة، الرجل الكبير مع السائق الكبير، وأنا محشور مع ستة من رجال الشرطة فيما يشبه عربة الكلاب. فلما أقفلوا الباب قلت: صونا لسمعتي. فلما تأففوا من شدة الحر، وكنا في آب الهباب، تأففت معهم. فانهالوا عليّ لكمًا ورفسًا وأنا أصيح: النجدة النجدة أيها الرجل الكبير. ولفظتها بلغة عبرية فصحي لأقنعهم بعلو كعبي وحتي أقوم من تحت أكعابهم. فتوقفت السيارة.

فإذا نحن علي مفترق الطرق بين الناصرة ونهلال. وقد عرجنا علي طريق المرج، مرج ابن عامر. وكان الرجل الكبير يؤشر لهم، من وراء الزجاج الفاصل ما بينه وبين عربة الكلاب، فأنزلوني وحشروني إلي جانبه، بينه وبين السائق. فاسترحت وتنهدت، استنشقت الهواء النقي وقلت: مرج ابن عامر.

فزجرني وقال: بل سهل يزراعيل.

قلت مراضيًا: (وما يهم الاسم) كما قال شكسبير؟ وقلتها بالإنجليزية.

فقال مهمهمًا: وتروي عن شكسبير أيضًا؟

فاسترخيت مبتسمًا.

فزجرني وهمهم بصوت مسموع أن هِم: هِم. ولو كنت أعلم بما وراء هذه الهمهمة لحفظت شكسبير في قلبي لا عن ظهر قلب.

وفيما نحن نوغل في طريق المرج متوجهين نحو مدينة العفولة المرجية، وأكتاف تلال الناصرة إلي يسارنا، أخذ الرجل الكبير يلقنني مبادئ حياتي الجديدة في السجن، وأصول التأدب مع السجانين من فوقي ومع السجناء من تحتي. وذلك بعد أن وعدني بترقيتي همزة وصل.

وكنت، كلما أمعن في هذا التلقين، أزداد يقينا أنه لا فرق بين ما هو مطلوب منا في السجن وما هو مطلوب منا خارجه حتي صحت من شدة الاستحسان: ما شاء الله!

وكان يقول: إذا ناداك السجان فليكن أول جوابك – نعم يا سيدي! فإذا انتهرك السجان فعليك الاكتفاء بأمرك يا سيدي! وإذا سمعت من زملائك المسجونين كلامًا فيه أي مساس بأمن السجن، ولو تأويلاً، فعليك أن تشي بهم إلي المدير. فإذا ضربك مدير السجن فقل له..

فقاطعته هاتفًا: حقك يا سيدي!

قال: كيف علمت؟ وهل كنت مسجونًا قبل أن نسجنك؟

قلت: حاش، يا سيدي، أن يسبقكم أحد إلي هذا الفضل. إنما وجدت أن سجونكم، عطفًا علي ما شرحته من أصول التأدب في سجونكم، هي من الإنسانية والرحمة في معاملة المسجونين بحيث لا تختلفون فيها عنكم خارجها في معاملتنا، ولا نختلف. فبأي شيء تعاقبون العرب المذنبين يا سيدي؟

قال: هذا هو ما يحيرنا. ولذلك قال الوفنا الوزير أن احتلالنا هو أرحم احتلال ظهر علي وجه الأرض منذ تحررت الجنة من احتلال آدم وحواء.

بل إن هناك من كبارنا كبارًا يعتقدون بأننا نعامل العرب داخل السجون معاملة أفضل منها خارج السجون، والأخيرة ممتازة كما تعلم. وهؤلاء الكبار موقنون أننا بذلك نشجعهم علي الاستمرار في مقاومة رسالتنا الحضارية في المناطق الجديدة، مثلهم مثل الأفريقيين آكلة لحوم البشر الذين كفروا بالنعمة.

قلت: كيف، يا معلمي الكبير؟

قال: خذ لك مثلاً عقاب الإبعاد إلي ما وراء النهر. فنحن ننزله بهم وهم خارج السجن. فإذا دخلوا السجن ثبتوا فيه ثبوت الاحتلال الإنجليزي.

قلت: ما شاء الله!

قال: ونهدم بيوتهم خارج السجن. أما في داخلها فيعمرون وينشئون.

قلت: ما شاء الله! ولكن، ماذا يعمرون؟

قال: سجونًا جديدة وزنازين جديدة في السجون القديمة ويزرعون من حولها الأشجار الظليلة.

قلت: ما شاء الله! ولكن، لماذا تهدمون بيوتهم خارج السجون؟

قال: لنقطع دابر الجرذان التي عششت فيها فننقذهم من الطاعون.

قلت: ما شاء الله! وكيف كان ذلك؟

قال: هذا هو التبرير الإنساني الخالص لوجه وزارة الصحة، الذي أورده وزير الدفاع عما اضطررنا إليه من هدم بيوت قري الجفتلك، في الغور، وردًا علي الاتهامات التي قذفها في وجوهنا، في الكنيست، النائب الشيوعي اليهودي أجير ناصر والملك حسين وأمير الكويت والشيخ قابوس.

– أفحمه؟

– بل وفحَّمه.

– كيف، ما شاء الله؟

قال: منعه رئيس الجلسة عن الاستمرار في الكلام، فأفحمه. إن الدمقراطية، يا ولد، ليست فوضي. والشيوعيون، كما تري، فوضويون. فرفض نائبهم الانصياع لأحكام الدمقراطية فطرده الرئيس من الجلسة طردًا، ففحمه.

قلت: ما شاء الله!

وذلك حين كانت سيارة البوليس تخرج بنا من مدينة العفولة المرجية علي طريق بيسان متجهة نحو مقامي الجديد. وكانت نوافير الماء علي الجانبين تنشر رذاذها المنعش علي خضرة يانعة ونحن في أوج الصيف. فإذا بالرجل الكبير، وهو محشور معي إلي جنب السائق في عربة الكلاب، يصبح شاعرًا.

وكان يقول، وأنا أمشئل: الخضرة، علي يمينك وعلي يسارك وفي كل مكان. أحيينا الموات وأمتنا الحّيات (وكان يعني الأفاعي). ولذلك أطلقنا علي حدود إسرائيل القديمة اسم (الخط الأخضر). فما بعدها جبال جرداء وسهول صحراء وأرض قفراء تنادينا أن أقبلي يا جرارات المدنية!

ولو كنت معي، يا ولد، حين عبرنا طريق اللطرون نحو أورشليم، لرأيت أمامك الخط الأخضر مرسومًا بالفعل علي الطبيعة نفسها بخضرة جبالنا المكسوة بأشجار الصنوبر، الشجرة تخاصر الشجرة والغصن يصافح الغصن وفي ظلها يتعانق المحبون. ثم كنت ستري، قبالة جبالنا المكسوة، جبالكم العارية حتي بلا أسمال تخفي عوراتها المكشوفة صخورًا ظلت تبكي ربع قرن حتي سحّت عنها كل التربة. دعونا نكفكف دموع الصخر وأما أنتم فلا تكفوا عن الانشغال بدموعكم وأنتم تبنون القصور في أعالي الصخور.

– ألهذا هدمتم قري اللطرون، عمواس ويالو وبيت نوبا، وشردتم أهاليها، يا معلمي الكبير؟

قال: لقد أبقينا علي الدير لرهبانه، مجلبة للسائحين، وعلي المقابر لذويها، إيمانًا برب العالمين. وورثنا هذا الرحب بهذه الحرب. والذي فات مات. وهو مثل أمريكي من أصل ألماني.

وما بلغ هذا البيت من شعره حتي كانت السيارة تبلغ بنا بيوت عين جالوت التاريخية، التي أعيدت إلي أصلها التوراتي – عين حارود. وفيها عين ماء تصب في بركة أنشأها أهل الكيبوتس ويؤمها أهالي الناصرة ليبتردوا وليشتموا المغول.

فأردت أن أجاريه في شعره فشدني من شعري قائلاً: لا يكن لك فكر. لقد انتصرتم علي المغول في وقعة عين جالوت لأنهم جاؤوا لينهبوا وليذهبوا. أما نحن فإذا نهبنا فننهب لنبقي. وأما أنتم فالذين يذهبون. اصرف عنك هذه الوساوس التاريخية واستعد لدخول سجن شطة.

وما أن قال هذا الكلام حتي وقع تغير فجائي في وجه الطبيعة من حوالينا. زالت الخضرة في طرفة عين فلم تعد العين تري سوي أرض جرداء وصخور قمراء، علي اليمين وعلي اليسار وعلي امتداد البصر، كأنما كنا نشاهد مسرحًا هبط في خلفه منظر وارتفع في مكانه منظر.

فقلت متهكمًا وأنا أتظاهر بالجهل بالجيوبوليتيكا: ها نحن خرجنا عن الخط الأخضر ودخلنا في خط العرب الأغبر، الذين تركوا أراضيهم أنتيكا.

فزجرني وصاح: كنت أحسبك حمارًا فإذا أنت أحمر. انظر أمامك فتري إلام ستدخل.

فنظرت أمامي فإذا ببناء ضخم ينتصب أمامي، كالغول في الصحراء. جدرانه الداخلية مطلية بالكلس الأبيض. وحوله سور عال مطلي بالدهان الأصفر، لأمر ما. وفوق سطوحه انتصبت كمائن الحرس، المشرعي السلاح، علي أربعة أطرافه. فهالنا مشهد هذه القلعة الصفراء، لا خضرة ولا كسوة. وهي ناتئة، كالدمل السرطاني، علي صدر أرض مريضة بالسرطان. حتي أنه لم يتمالك نفسه عن القول: سجن شطة الرهيب، ما أروعه!

فوجدتني أهمس وأنا مشرئب العنق هلعًا: ما شاء الله!

قال: مدير السجن هو الذي يشاء فانزل أوصيه بك.

كيف وجد سعيد نفْسه وسط حلقة عكاظية-شكسبيرية

نزلنا أمام باب السجن الحديدي فهبط العسكر من عربة الكلاب وهرع ثلاثة منهم نحوي فأحاطوا بي كالأثافي الثلاث. وأما الرجل الكبير فتصدر الموكب أمام الباب. فما أن طرقه طرقة واحدة حتي نبح كلب من الداخل فانفتح.

فإذا بمدير السجن، بلحمه وبشحمه، وهو ذو لحم وشحم كثير، يهرع لاستقبالنا وأمامه كلبه البولدوغ المدلل. هذا يهش وذاك يكش. فلاعبا الكلب تارة وتطبطبا علي الظهر أخري حتي صعدا علي درج وأنا واقف في الساحة الداخلية تحيط بي الأثافي.

ثم استدعاني أحدهم فصعد بي علي الدرج إلي دهليز، فدهليز آخر، فآخر، حتي أدخلني مكتب المدير فإذا بهما يرتشفان القهوة بسرور مسموع.

فهش المدير في وجهي وقال: بوصاية صديقي العزيز، الرجل الكبير، سأعاملك معاملة خاصة. ولقد علمت منه أن ماضيك أبيض ناصع البياض لا تشوبه سوي شائبة سوداء واحدة هي ذلك العلم الأبيض الناصع البياض، وأنك ولد مثقف وتروي عن شكسبير.

فانبسطت أساريري وانبسطت علي مقعد.

فعاجلني بالقهوة وبالحديث عن شكسبير. فصار يتلو من خطبة أنطونيوس أمام جثمان قيصر فأتلو عليه ما غاب عن ذاكرته منها وهو يصيح: برافو، برافو! ثم قام عن مقعده وأخذ يتصنع دور عطيل وهو يقبل ديدمونة القبلة القاتلة. فاستلقيت علي الأرض ديدمونة. فقال: قم، لم يحن أوان ذلك بعد! فقمت وقامت معي الهواجس.

قال: ولكننا أمام السجناء سنعاملك مثلما نعاملهم، وأنت فاهم.

قلت: فاهم يا سيدي! ونظرت إلي الرجل الكبير مطمئنًا فرد عليّ بأحسن منها.

فضغط المدير علي زر فأقبل أحد الحراس. فصافحت المدير ثم صافحت الرجل الكبير الذي أوصيته بزميلي يعقوب خيرًا. وظللت أشكر هذا وألهج بحمد ذاك حتي دفعني الحارس خارج المكتب. فلما أوغلنا في الدهليز الثاني قلت في نفسي: أصبح هذا الحارس صديقي وأخي فقد عبرنا سوية في دهليزين في سجن واحد، كالمشاركة في العيش والملح. فقلت له: مدير عالي الثقافة!

قال: فعم كنتما تتحدثان؟

قلت: عن شكسبير وعطيل وديدمونة.

قال: وتعرفهم؟

قلت: أروي عن الأول وأستلقي كالثالثة.

قال: يا حبذا..

حتي أدخلني في غرفة معتمة خلو من النوافذ وجرداء من أي أثاث. فلما أضاء قنديل كهرباء في وسط السقف، أوهي من نار جحا، رأيتني واقفًا في وسط حلقة من السجانين العراض الطوال، كل سجان بعينين ناعستين اثنتين وبساعدين مشمرتين اثنتين وبفخذين غليظتين اثنتين وبفم واحد مفتر عن ابتسامة كشراء كأنما طبعت جميعها في قالب واحد.

فظللت أحاول أن أطبع علي فمي الابتسامة نفسها فينهار الجانب اليساري من فمي، فأقومه، فينهار الجانب اليميني، فأقومه، فأحس بشفتي السفلي كلها تنهار، فأقومها، فتصطك أسناني.

وفيما أنا في هذه الرياضة الشفهية سمعت الحارس الذي اقتادني إلي هذه الغرفة العبقرية يقول لعسكر الأفخاذ: ويروي عن شكسبير أيضًا!

فكانت إشارة البدء بسوق عكاظية لم يشهد تاريخ العرب مثيلاً لها منذ أيام داحس والغبراء.

بدأها أحدهم قائلاً: شكسبرنا يا ابن الكلب! ثم لكمني لكمة مهولة. فتلقاني آخر قائلاً: خذ يا قيصر! فأخذت أتمايل نحوهم حتي ملوا اللكم فأعملوا الرفس فصرت أتدحرج تحت أقدامهم فيتداولونني فيما بين أقدامهم فأكون تارة أسرع منهم حركة فأشعر بعدة أفخاذ تنيخ علي صدري دفعة واحدة. فأصرخ فلا أسمع سوي أصوات مكتومة صادرة عن ضرب ولكم ورفس لم أعد أشعر بأنها تصيبني بل أسمعها قادمة من مكان بعيد. وكانوا قد توقفوا عن إنشاد الأشعار الشكسبيرية وانصبوا علي شعر الآهات: يتأوهون عزمًا فأتوه خورًا. يلهثون وألهث حتي شعرت بأحذية تقطع أنفاسي فغبت عن الوعي من شدة القهر.

وآخر ما سمعته منهم أن أهلاً وسهلاً بشكسبير. فعلق بي هذا اللقب بين زبائن السجن وفي أوساط الخريجين.

سعيد في بلاط مَلِك

كان النهار يولي الأدبار، أو هذا هو كل ما رأيته منه، حين أيقظتني يد تصافح يدي. فإذا أنا ممدد علي فراش من القش في غرفة معتمة منخفضة السقف لا ينيرها سوي نور من النهار يتيم يحاشر قضبانًا حديدية متشابكة علي كوة وحيدة في أعلي الحائط فلا يدخلها إلاّ جريحٌ.

وكانت اليد إلي يساري تصافح يدي وتشد عليها صبرًا.

فوجدت أنني عاجز عن تحريك أصابعي فحركت رأسي أنظر إلي يساري فغام بصري علي جسم فارع الطول ممدد إلي يساري علي فراش مماثل من القش، عار إلاّ من زي ربه وقد طلي بما حسبته، لأول وهلة، الدهان الأحمر القاني.

ولولا عينان اثنتان صوبتا نحوي بلا حراك ابتسامة تشجيع سرية، ولولا يد تشد علي يدي أن اشتد، لحسبت أن الجسم الممدد إلي يساري جثة بلا حياة.

قلت: أهلاً! فخرجت: آها!

فسمعت صاحب الجسم الملتف بعباءة الملوك الأرجوانية يهمس: ما شأنك يا أخي؟

قلت: هل هذه هي الزنزانة؟

فسأل: أول مرة؟

قلت: هناك غرفة بلا نوافذ..

قال: وهناك أمل بلا جدران.

قلت: وأنت؟

قال: فدائي ولاجئ. وأنت؟

فتحيرت في هويتي كيف أنتسب أمام هذا الجلال المسجي الذي حين يتكلم لا يئن ويتكلم حتي لا يئن. هل أقول له أنني كبش ومقيم؟ أم أقول له: دخلت إلي بلاطكم زحفًا؟

فسترت عورتي بأنين طويل.

فتحامل علي نفسه فإذا هو منتصب أمامي بقامته الفارعة حتي رأيته يحني رأسه كي لا تصطدم بالسقف أو كي ينظر إليّ.

وصاح: كف يا رجل!

قلت في نفسي: ها قد أصبحت رجلاً بعد أن ركلتني أرجل الحراس.

وكان ظاهر الشباب لم تزده عباءته الأرجوانية إلاّ شبابًا.

مالك يا أخي؟ لو كنا التقينا في الخارج هل كان يناديني بيا أخي؟ وشيء في عينيه أعادني عشرين عامًا إلي وراء، إلي ملاعب الصبا ومدارج شارع الجبل. وفي ندائه، ما لك يا أخي، سمعت صراخ (يعاد) القديمة، والعسكر يلقونها في سيارة الترحيل: هذه بلدي، داري، وهذا زوجي!

فأعولت كالأطفال.

– اصبر يا والدي..

فلم أتوقف عن البكاء. إلاّ أنه كان اعتزازًا وامتنانًا، بكاء الجندي يمنحه قائده وسام الشجاعة.

– تشجع يا والدي..

دوسي، أيتها الأحذية الضخمة علي صدري! اخنقي أنفاسي! أيتها الغرفة السوداء أطبقي علي جسدي العاجز! فلولاكم لما اجتمعنا من جديد. الحرس الغلاظ، لو كانوا يعلمون، هم حرس الشرف في بلاط هذا الملك. والغرفة السوداء الضيقة هي البهو المفضي إلي قاعة العرش!

أصبحت أخاه. أصبحت والده. فأعيدوا ابتساماتكم إلي قوالبها أيها العسكر!

وهزني اعتزاز لم يهزني منذ هتاف: هذا زوجي!

أنا والدك أيها الملك. فلي ولد، مثلك، إلاّ أن عباءته من مرجان البحر.

ولم أشأ أن أخبره بأنني من حيفا فيطول الشرح. فقلت: من الناصرة.

قال: أهلنا الشجعان.

ثم سأل: شيوعي، بالطبع؟

قلت: بل صديق.

قال: أنعم وأكرم.

وضمد جراحي بالحديث عن جراحه. وظل يوسع في الكوة الضيقة الوحيدة حتي رأيتها في عرض الأفق الذي لم أره من قبل. وأصبحت قضبانها المتشابكة جسورًا نحو القمر، وما بين فراشي وفراشه حدائق معلقة.

وكنت أحدثه عن نفسي بما كنت أحلم به عن نفسي. وما كنت كاذبًا. إنما تحاشيت أن أدنس جلال هذا المقام بخصوصيات جردني منها السجانون حين جردوني من ملابسي الخصوصية. ها أنذا متجرد أمام متجرد. فكيف تخرج يا آدم من الجنة بمحض إرادتك؟

إلاّ أن الحراس لم يمهلوني. فقد جاؤوا وأخرجوني من الجنة ونقلوني إلي القاووش.. وهو قاعة طويلة في السجن يرقد فيها السجناء متراصين كل علي برشه. وهو سرير حديدي فوق فراش من القش. فبقيت عدة أيام أرتكب المخالفات لعلهم ينقلوني إلي الزنزانة فألتقي ذلك الشاب الذي ناداني بـــ (يا والدي). ولكنهم لم يفعلوا.

وعلمت من السجناء أنه فدائي فلسطيني قادم من لبنان أسره العسكر جريحًا.

وقالوا أن اسمه سعيد، فقلت: عاشت الأسامي. فقالوا: ولكنه لم يتسم بشكسبير. وابتسموا مواسين. فانشغلت بتضميد جراحي وبالبحث عن سعيد الأول حتي التقيت أخته، (يعاد) الثانية، وأنا خارج من السجن مطلق السراح للمرة الثالثة.

سعيد يُنشِد أنشودة السعادة

فالذي يدخل إلي السجن، في بلادنا، يصبح حاله كحال المكوك في يد الحائك: داخل خارج. وأما حائكي فهو الرجل الكبير. لم يشفع بي ماضيّ الأبيض بل زاد سوادًا حاضري سوادًا. حتي رأيت باب السجن الحديدي بابًا بين ساحتين في سجن واحد، ساحة داخلية أتمشي فيها ساعة، فأستريح، وساحة خارجية أتمشي فيها ساعة، ثم أروح.

وفيما أنا في مدار هذا الصاروخ المكوكي جاءني الرجل الكبير مهددًا بأنهم سيظلون ورائي من سجن إلي سجن حتي أهلك حبيسًا أو طليقًا أو أن أعود إلي خدمتهم.

– حلوا عني واركبوا غيري!

– هل تتوهم أننا نجد أمثالك ملقين علي قارعة الطريق؟

– قضيت نصف عمري في خدمتكم. فدعوا البقية أعيشها كبقية خلق الله، لا أهش ولا أنش.

ولكنه أفهمني أن هذه الخدمة لا فكاك منها حتي بالموت.

وقال: أبوك أورثها لك وستورثها لأولادك من بعدك. وسوف يلعنونك إلاّ أن ذراعنا الطويلة ستنالهم، جيلاً بعد جيل.

وهددني بأن الناس لن يؤمنوا بتوبتي بل سيقولون أن العرق دساس وأن من شب علي شيء شاب عليه، وبأنني لن أجد ملاذًا غيره. وهددني بالسجن. وهددني بالتعذيب. وهددني بالموت جوعًا.

ولكنني لم أجع. فقد بسطت، في زاوية في وادي النسناس، بسطة كنت أبيع فيها الخضار.. فإذا جاء موسم البطيخ بعته أحمر حلو المذاق علي السكين.

فلما سلطوا عليّ عساكر البلدية حليت أفواههم. فلما رجمني أولاد الحارة، علي اعتبار شهرتي الشهيرة، استحليتها منهم فتركوني أحل في الحارة مطمئنًا.

غير أن الرجل الكبير لم يحل عني. فاستكتب ورقة يأمرونني فيها بالإقامة الجبرية. فأخفيتها حتي يظل عساكر البلدية يجبرون بخاطري. فإذا بالرجل الكبير يرسل عساكره فيداهمونني علي بسطتي، في عز الظهر، فيقتادونني إلي السجن متهمينني علي رؤوس الأشهاد بأنني خالفت أمر

الإقامة الجبرية وسافرت إلي شفا عمرو أتسوق بطيخًا وأن هذا الفعل يطيح بكيان الدولة. فالذي ينقل البطيخ سرًا ينقل الفجل سرًا، وبين الفجل والقنابل اليدوية مجرد لونه الأحمر. والأحمر، علي كل حال، ليس الأزرق والأبيض. وبالبطيخ تستطيع أن تنسف كتيبة كاملة، إذا أخفيت فيه قنابل نعل، يا بغل!

فأجابهم البغل: ولكنني أفتحها علي السكين!

قالوا: والسكين أيضًا... فلما انتشر الخبر بأن ورقة الإقامة الجبرية قد جاءتني ازداد الإقبال علي بسطتي حتي جاءني شاب وقد تأبط صحفًا. حيي وقال:

– جاءتك؟

قلت: جاءتني منذ زمن طويل.

– فلماذا لا تقرأ الجريدة؟

قلت: لأنكم لم تجيئوا.

فقمت وعلقت ورقة الإقامة الجبرية علي جدار البسطة. فلم يمض يومان حتي جاءت الشرطة، وأبلغتني بأن الحاكم تلطف وألغي أمر الإقامة الجبرية. وأن دولتنا دمقراطية. ثم انتزعوا الأمر من علي الجدار وأعادوني إلي السجن قائلين أنني حقرت أوراق الدولة الرسمية.

وقال كبيرهم: لو كنت في بلد عربي هل كنت تجرؤ علي التباهي بورقة الإقامة الجبرية؟ إن دمقراطيتنا لا تصلح لكم.

وذلك وأنا في طريقي إلي السجن.

وفيما أنا خارج من الساحة الداخلية إلي الساحة الخارجية مطلق السراح، وقفت علي طرف الطريق من بيسان إلي العفولة أستوقف سيارة تحملني. فإذا بسيارة خصوصية علي رقمها حرف (ش) بالعبرية إشارة إلي أنها من مواليد (شخيم)، وهي نابلس لا غير، تتوقف فجأة أمامي.

ويدعوني سائقها إلي الصعود فأصعد شاكرًا.

وكان أن جلست في المقعد الخلفي وحيدًا وأنا مستوحد. وكانت فتاة جالسة إلي جانبه ولم أر منها سوي شعر فاحم السواد كشعري بلا شيب. فقلت في نفسي: أنا في ايش وفكري في ايش.

وما اجتزنا طرفًا من الطريق حتي دهمني السائق بالسؤال: كنا نعود قريبًا في سجن شطة فأخبرنا الزملاء بأنك التقيت سعيدًا. ولكن المدير أنكر وجوده. فهل تعرف له من مكان؟

فانقبضت نفسي من هذا السؤال. فتحسست مقبض الباب كي أنزل من هذه السيارة الملغومة، إلاّ أنها كانت مسرعة. فأسرعت أجيب، وأنا مذهول:

– أنا سعيد!

فالتفتت الفتاة ذات الشعر الفاحم السواد نحوي لفتة زوبعية وهي تصيح:

– بل أخي سعيد.

– يعاد!

– حبيبي.

– يعاد!

أو هذا ما أحسب الآن أنه قد جري بيننا. أما في تلك اللحظة التي كانت أقصر من اللحظة، فإنني لم أكن أسمع شيئًا، ولم أكن أري شيئًا سوي عينين خضراوين يتألق بؤبؤاهما بنور سماوي افتقدته عشرين عامًا.

لقد رأيت (يعاد)، عشرين عامًا من (يعاد) دفعة واحدة، في عينيها وفي صوتها وفي شعرها وفي قامتها. فكيف تشعر سمكة أطاحت زوبعة، دفعة واحدة، بثلج تراكم علي سطح نهرها عشرين عامًا؟ يا تراب القطب الجنوبي قل لهم كيف يكون شعورك لو انحسرت من فوقك ثلوج الدهر دفعة واحدة! يا لظي البراكين ارو لهم حكايتي! ويا صخر بلادي انفجر ينبوعًا!

أما أنا فانفجرت بكاء.

فأوقفا السيارة. فنزلت (يعاد) وانتقلت إلي المقعد الخلفي بالقرب مني. فأخذت يدي بين يديها فوسدتهما صدرها ثم وسدت رأسها كتفي فامتزجت دموعنا. وكان السائق يزغرد ببوق سيارته ويسير بها بطيئًا كأننا في موكب عرس.

– سعيد، سعيد.

– يعاد، يعاد.

– أخيرًا وجدته.

– ولن تفقديه أبدًا.

– كيف حاله؟

– علي ما ترين، يا يعاد!

واستحوذتني رغبة جامحة في أن أصفق، في أن أغني، في أن أزغرد، في أن أصرخ حتي تنهار من علي صدري طبقات الخنوع والمذلة والحاجة، والصمت، نعم يا سيدي، عظيم يا سيدي، أمرك يا سيدي! فينطلق قلبي من صدري، حرًا، يطير، يحلق في أجواز النسور، ينادي علي الناس: مثلكم أنا يا ناس، شجاع مثلكم، ومثلكم لي قدمان ثابتتان علي الأرض وظهر مستقيم وقامة طويلة ورأس في السماء. سعيد بشجاعتي مثلكم يا ناس. (يعاد) إلي جانبي يا عالم! صغيرة كعصا الراعي، جديدة كالحلم القديم!

عشت الأعوام العشرين لوحدي. عشتها بعيدًا عن (يعاد). عشتها حتي الثمالة، حتي القعر. شربت كأسها المر كله وحدي. فلم يبق لها منه أية قطرة. أنقذتها من هذه السنوات العشرين المريرة، فبقيت (يعاد) صبية في العشرين وبدون عشريني. عادت إليّ كما كانت، هي هي، تضحك وتبكي، تتحدي وتحب، وتناديني: سعيد!

سعيد أنا يا عالم! اسمعي يا دنيا، من الخط الأخضر حتي الأفق الأزرق، القفار والحقول، القبور والسماء: لقد انطلقت خارج الساحتين حرًا، الداخلية والخارجية. أصبحت حرًا.

سعيد، أنا سعيد!

ولكنني فعلت أمرًا آخر بالمرة. فبدون أن أدري بما دفعني اندفعت ففتحت باب السيارة وألقيت بنفسي منها، ويدي بيد يعاد لا أتركها. فوقعنا علي التراب الجاف وأنا غائب عن الوعي.

وجهتا نظر في مصيبة اسمها الطوق!

أيقظني عطر القرية، الذي عبق به ليلها الأنيس. فوجدتني مستلقيًا علي فراش من الصوف نظيف. فتخيلت أنني نائم علي صدر أمي، في بيتنا العتيق. وكانت تأتيني رائحة المونة وخابية الزيت وطين الطابون، وأصوات همس مكبوت، وأنفاس أطفال نائمين بلا كبت، وخيالات نساء قرويات، وهن رائحات غاديات يحملن أطباق الأرز المعصفر وفوقه لحم الدجاج، ومائدة خشبية منخفضة في وسط البيت العتيق.

فناديت: أماه!

فسمعت النسوة ينادين علي (يعاد) أن والدها قد استيقظ. فأخذت أتلفت حولي بحثًا عن والدها فلم أعثر له علي أثر.

– أين أنا؟

فأخذن يحمدن الله علي نجاتي وهن منسحبات خارج الغرفة بإشارة من (يعاد). وسمعتهن يرجونها أن تسرع قبل أن يبرد الطعام.

وجثت (يعاد) علي الحصير إلي جانبي وقالت: صن سري بكرامة أخي سعيد.

فقلت: بل أصونك حتي من الموت!

فأخبرتني بأننا في قرية (السلكة) المرجية. وهذا الاسم غير ظاهر علي الخارطة، لا لأنه زال من الوجود، ومثل هذا الأمر موجود، بل لأنه غير موجود. فقد استعرت لهذه القرية، التي آوتنا، اسم السلكة، أم سليك بن السلكة، الذي

طاف يبغي نجوة من هلاك فهلك
فالمنايـــا رصد للفتي حيث سلك

وذلك حفاظًا علي سر هذه القرية المرجية العجيب الذي، علي الرغم من أنه جاوز الاثنين، لم يجاوز حدود القرية عشرين عامًا، عن فتي لم يطف كالسليك بن السلكة في الأرض نجوة، فهلك، بل أقام حتي شاخ، فهلك. ولكنني أفردت لهذا السر فصلاً خاصًا سأرويه عليك حين يجيء.

وأما سر (يعاد)، الذي ناشدتني أن أصونه، فهو ادعاؤها أمام مضيفنا أنني والدها.

قلت – قيل: رب أخ لك لم تلده أمك. وأنا أقول: رب والد لك لم تتزوجه أمك.

قالت: رحمها الله، أنت في ايش ونحن في ايش.

فقلت: فما أبقاك معي، إذن، وأين السائق؟

فأخبرتني بأننا حين وقعنا من السيارة وكانت، سلم الله، تسير بطيئًا، غبت عن الوعي دون أذي. وأما (يعاد)، (شكرًا لك يا والدي)، فقد كنت أحوطها بذراعي فوقعت علي صدري فلم تتأذ. فهرع نحونا رجال ونساء من قرية السلكة، كانوا يعملون في أراضي الكيبوتس القريبة من موقع وقعتنا، وكان علي رأسهم مضيفنا أبو محمود الذي أكرم وفادتنا وسافر معنا إلي قريته، فبيته، حيث وجدوا أنني غائب عن الوعي إعياء فحسب. فتركوني أستريح حتي أتماثل.

وأما سائق السيارة، وهو صاحبها، فهو صديق كريم إلاّ أنه اضطر للعودة إلي نابلس، فإنه محظور عليه المبيت في إسرائيل وسيارته معه. وقد تركنا وهو شديد التأثر مما بدا منه من إهمال. فقد توهم أنه هو المسؤول عن سقوطنا حين لم يحكم باب السيارة إغلاقًا. فأحكمت إغلاق فمي عن هذا الوهم خوفًا من وقعة أخري.

أما (يعاد) فآثرت البقاء معي حتي يعود إليّ رشدي، فأعيد إليها أخاها سعيدًا الذي جاءت إلي شطة من بيروت تبحث عنه.

– وسجين زندة المقيم (الذي هو أنا)، يا (يعاد)، ألا تعودين إليه؟

– الآن، يا والدي، وقت العشاء. قم وأكرم الناس الكرام الذين أكرمونا.

وأقبل أهل الدار يسلمون علي القادمين (من عند العرب). وكانوا يؤهلون بنا تأهيلاً عظيمًا، ويتلقفون كل كلمة نقولها بحرص شديد كما لو أنها بضاعة نادرة مهربة. وتولت يعاد الرد علي أسئلتهم. وأما أنا فاكتفيت بالقيام والقعود وبيا حي الله وبالسلام عليكم، خوفًا من أن يتعثر لساني بكلمة في غير موقعها فأقع.

وكانت (يعاد) بين الرجال رجلاً. حسنها شباب، وشبابها حسن وأحسنهما إلمامها الحسن بحديث الرجال. وكنت أنظر نحوها مأخوذًا بها، فأسمع الرجال يدعون الله أن يبقيها لي فأحمده وأدعو له وأغض الطرف عن سري.

وقالوا إنهم كتموا أمرنا، ما وسعهم الكتمان، عن بقية أهل القرية حذر الوشاة وأن يكون قدومنا غير قانوني.

وأخبرنا أبو محمود، وهو رب البيت، بأن القرية وقعت، قبل عام، في الطوق سبعة أيام بحثًا عن متسللين. فلما لم يجدوهم اقتادوا أربعة عشر رجلاً إلي السجن وفكّوا الطوق عن القرية.

فما هو الطوق؟

قال: يقوم البوليس بتطويق القرية ويسد منافذها ويفرض منع التجول فيها. ثم تهدر سياراته المصفحة في أزقة القرية. وينتشرون، وفي أثرهم كلاب الأثر، يدخلون البيوت ويروعون الأطفال ويدلقون خوابي الزيت علي عدل الطحين خوفًا من أن يكون المتسللون قد تسللوا إلي الخوابي والعدل. فإذا سمعنا صراخًا في بيت تسللنا إليه في حلكة الليل، فليل القرية حالك، وهذا حاله عشرين عامًا، يسدلونه سترًا لهم فنتستر به عنهم، فإذا قال أهل البيت المنكوب: أخذوا سعدا! قلنا: انج سعيد! فيخترق الطوق برعاية ليلنا الساتر إما منجاة أو في طلب الرزق.

قالت: أفلا من مجير؟

قال: ما من مجير سوي الشيوعيين وأهل الكيبوتس! وكنت لاحظت أن هؤلاء القرويين، ما أن يلتقوا قادمًا من (عند العرب)، حتي يحسبوه شيوعيًا أو من الحمولة. فتراهم يوسعون له من صدورهم الواسعة. فضحكت في سري ثم قلت: يا حي الله!

وأبو محمود قال: أما الشيوعيون فيجرؤ نوابهم علي اختراق الطوق. فيدخلون معنا فيه مؤاسين ومشجعين أن اصمدوا. ويجمعون الحقائق. ويصيحون في الكنيست. وهو مثل البرلمان عندكم (فضحكت في سري ثم قلت: يا حي الله!) ويضطرون الوزير إلي الرد. فتخترق مصيبتنا جدار الصمت الرسمي. ويسيرون علي رأس مسيرات في الناصرة وتل أبيب يهتفون في أثنائها: فكوا الطوق، فكوا الطوق، اليوم تحت وبكره فوق! وينشرون عن طوقنا في صحفهم. ويقولون لنا أن صحف الأحرار، في أنحاء العالم، تنقل عنهم فيطلق طوقنا الضمير العالمي الذي تحاول الصهيونية أن تطوقه، لولا الشيوعيون. فهل قرأتم عن طوقنا في صحف الأقطار العربية التي لم تطوقها الصهيونية؟

قالت دعد، وعيناها تبرقان إيذانًا برعد: أن صحف الأقطار العربية تطوقنا بالانتصارات، كالأطواق فوق رؤوس قديسيها، فلا يبقي مكان فيها لطوقكم. وما انفكوا يطوقوننا بأطواق الانتصارات حتي اختلط الحابل بالنابل فلم تعد تفرق بينها وبين أطواق الزهور علي القبور.

قال: ولكن الصهيونية تقيم الدنيا وتقعدها علي خدش أصبع؟ فقصف الرعد. فقالت: القضية، يا

سادة، هي وجهة نظر. فأنتم ترون في ما أصابكم مصيبة. أما نحن فإن الطوق هو حياتنا. تقولون: من المهد إلي اللحد. أما نحن فنقول: من الطوق إلي الطوق! فلا تنتظروا من الذين يعيشون حياتهم كلها في التطويق والتفتيش، نهب كلاب الأثر حتي ضياع الأثر، أن يشعروا بمصيبتكم التي أصبحت حياة أمة بأسرها، من الخليج حتي المحيط!

فلم أتمالك لساني إلاّ بعد أن قلت: من سواك بأخيك ما ظلم! فاشرأبت الأعناق نحوي منزعجة. فشعرت بأنني وقعت. فرحت أحيي السامر علي اليمين وعلي اليسار وأنا أقول:

يا حي الله! يا حي الله!

فهمهموا بما يشبه التحية.

قالت: وأهل الكيبوتس؟

قال: لا يمضي أسبوع علي التطويق حتي تتوق أراضيهم إلي أيدينا الماهرة. فيتوسطون لفك الطوق فنعود إلي العمل في حقولهم.

قالت: لماذا أنتم؟

قال: لأنها كانت حقولنا. أنبتناها وسوف ننبتها. تحنو علينا كما نحنو عليها. وأما هذا الحنو فقد عجزوا عن مصادرته.

فانفلت لساني من عقاله مرة أخري. ووجدتني أصيح مندهشًا: فالخضرة نبت سواعدكم، إذن، لا كما ادّعي الرجل الكبير!

فاشرأبت الأعناق نحوي، مرة أخري. وتهامس السامر بالسؤال: من هو الرجل الكبير؟

إلاّ أن (يعاد) عاجلتهم بابتسامتها الساحرة وبأن والدها يتحدث عن ذلك الجندي، الضخم، ولذلك فهو رجل كبير، الذي دخل معه في موضوع السياسة ونحن ندخل في الضفة الغربية عبر الجسر.

وطمأنتهم (يعاد) علي أننا قادمان عبر الجسر بإذن إسرائيلي رسمي. وسوف نبقي في البلاد شهرًا نقضيه بحثًا عن أخيها سعيد الذي جاءنا أنه رهين في سجن شطة.

قالوا: الرهيب..

قلت: اسألوني.. إلاّ أن هرجًا ومرجًا في الخارج أنقذاني من هذه الوقعة الأخيرة..

السرّ الذي لم يُمت بموت السرّ

رأينا مضيفينا يغدون ويعودون وقد اشتد عليهم التأهيل بنا كما لو أننا حللنا منزلهم توًا حتي ضاع، في ذلك، صوت الضوضاء في الخارج. فحاولوا أن يضيئوا وجوههم المنطبقة علي أمر خطير بابتسامات ذكرتني بأغصان الشجر فوق خوذة جندي أو فوق دبابته.

وأردت أن أسأل: ما الخبر! لولا قدم (يعاد)، التي داست علي رجلي، فكتمت أنفاسي.

واختفت النساء عن أعيننا. وأطفال كانوا نائمين في زاوية استيقظوا فحملوا أغطيتهم علي ظهورهم وغابوا عن أنظارنا مطأطئي الرؤوس دون أن ينظروا في وجوه آبائهم.

وكان رجال، لم نرهم من قبل، يدخلون المضافة فيجلسون بعد أن يرحبوا بنا. وأما رجال الدار فكانوا يخرجون واحدًا واحدًا فلا يعودون.

سوي أبي محمود الذي تسمر في مكانه وقد أقام ظهره فلا تعرفه جالسًا أم قائمًا.

وجثا فوق صدورنا صمت ثقيل كالذي يؤذن، كما قيل، بالعاصفة. فأردت أن أقول: (هذه هي الشجرة التي تصمد لها!) لولا قدم يعاد الضاغطة بعناد علي أسناني.

وأتانا من بعيد نحيب امرأة مخنوق الصدي. فاشتد ترحيب الغرباء بنا واحداً بعد واحد، في حلقة لا فكاك منها، يقومون ويقعدون فأقوم وأقعد دون أن أنجح في فك قدمي من تحت قدم (يعاد)، أو لساني المتململ من عقاله.

حتي رأيت مضيفنا يخرج، في مشية أرادها عادية فجاءت عسكرية، ثم يعود وهو يقول: لا حول ولا!

فأطلقتها: خير إن شاء الله؟

قال: شيخ جليل من أهلنا وافته المنية الليلة. فتبكيه النسوة.

فلما وجدت أن كلامي محمود، سألت:

– المختار؟

فأجاب شيخ من الغرباء: اختاره ربه إلي جواره وهو أرحم الراحمين.

فأوغلت في جرأتي فقلت: لو أخذهم جميعًا!

قال: كلنا إليها.

فقلت: رحمه الله. ومن خلف ما مات. وكان هاجس قد انتابني أن ما بدا علي القوم من اضطراب، علي أثر الهرج والمرج في الخارج، راجع إلي أن طارشا في الخارج جاء يبلغهم بحقيقة أمري. فلما استوعبت ما جاء به مضيفنا عن وفاة شيخهم تنهدت مستريحًا ووجدتني أفلت: الله سلم!

فلم تلحقني يعاد بقدمها، هذه المرة، إلاّ بعد أن قضي الأمر. والغريب في هذا الأمر أن القوم الغرباء همهموا مستحسنين دعائي وراضين عنه.

فانطلقت من تحت قدم يعاد أفسر لهم فلسفة عائلتنا، المتشائل، وأن هناك موتًا أسلم من موت، وموتًا أسلم من حياة، وأن أخي البكر، حين قطعه الونش في (بور) حيفا إربا، دفناه جثة بلا رأس.

ومرة أخري بدرت من القوم الغرباء همهمات الاستحسان والرضي عن فلسفتي العائلية العريقة حتي انهمكت في ترتيب كلام في رأسي يليق بسؤالهم عن أصول أشجارهم العائلية لعلنا أن نلتقي في أصل أو في فرع. فكلنا من آدم.

غير أن (يعاد) أوقفتني عن هذه الرياضة الذهنية – التاريخية وهي تحوطني بذراعها وتشدني إليها شدًا خفيفًا وتهمس في أذني: عمي سعيد، عمي سعيد، جئت كي أزورك!

فصرخت: تزورين فحسب؟

فأجاب مضيفنا أبو محمود: لا حاجة إلي ذلك. لقد دفناه وانقضي الأمر.

فقد ظن بأننا نتحدث عن شيخه الميت لا عن شيخنا الحي.

فسألت: الليلة؟

قال: الليلة.

– ولماذا لم تنتظروا طلوع الفجر؟

قال: إن فجره لا يطلع غدًا.

فعن أي فجر يتحدث، إذن؟ قلت، وأنا محتار: إنني لا أفهم من كلامك شيئًا.

قال: ولا هم يفهمون!

فصرخت يعاد: نحن أصدقاؤكم، فأفصح. إن الصمت يخنقكم.

قال: كل ما حوالينا، نحن أهل القري، صامت: الأرض والدواب والمحراث. إن لغتنا هي الصمت. فنتوارثها جيلاً جيلاً. فإذا كنتم تتحدثون بهذه اللغة تفهموننا ونفهمكم.

قالت: ألا تزغردون؟

قال: الأمر أعقد مما تتصورين، يا أختنا القادمة من بيروت. لقد زغردنا وزغردنا وزغردنا، مثلما لم يزغرد أحد. ولكن أعراسنا كانت تتحول، في كل مرة إلي مآتم. والذي كنا نحسبه صديقنا كان يخطف العروس ويهرب إلي بيروت!

قالت: إن أصدقاءكم. اليوم، مختلفون. فهم أصدقاء مخلصون. ألم تذكر الشيوعيين، مثلاً، بالخير؟

قال: علي الرأس وفوق الحاجب إلاّ أن غذاءنا الأساسي هو زيت الزيتون. نستحلي أعواد الخرفيش إلاّ أنها تنقصف. لا بأس بالبرق ولكنه لا يزيل ليلنا الصامت. سنظل نجربهم ونجربهم ونجربهم، في صمت، حتي يطعمونا من زيتونهم. صياح الديك لا يطلع الصباح. ولكن ديوكنا ستصيح حين يطلعونه. فعلي أصدقائنا أن يتعلموا النطق بلغتنا، لغة الأرض والدواب والمحراث – الصمت الدؤوب!

وكان القوم الغرباء يهزون رؤوسهم، بصمت، استحسانًا. وأحببت أن أقاطعه قائلاً: لو كان كلامك صحيحًا لكنت أنا، سعيدًا أبا النحس المتشائل، الصامت ذلا، صديق الفلاحين الأول!

لولا أنني تذكرت ماضي النابح وأنني كنت أتكلم بالوشاية ولا أصمت!

ثم أتتني خاطرة عجيبة حقًا وهي أنني، علي طول باعي بالوشاية، لم أستطع أن أشي بصمت رجل صامت. فصمت!

وفيما أنا في هذه المناجاة الصامتة، بيني وبين نفسي، إذا بامرأة عجوز، هزيلة كعود ذرة جاف، تدخل علينا دامعة العينين وهي تصيح: السر مات، يا أبا محمود، فعلام تتستر!

فهرع أبو محمود نحوها وأخذها بذراعيه ودفعها محاولاً أن يخرجها إلي الخارج. فأبت. فظل يحوطها بذراعيه وقد أسند رأسه إلي صدرها وأجهش بالبكاء كالأطفال وهي تخفف عنه وتشاطره البكاء، ونحن مذهولون والقوم الغرباء ينسحبون من المضافة واحدًا واحدًا فيبتلعهم الليل البهيم وقائلهم يقول: السر مات. ولكن علينا، غدًا، أن نعيش!

قضينا تلك الليلة مستيقظين وأبو محمود يروي لنا أعجب قصة سمعناها عن شاب ضرير من أهل القرية ترك قريته، في عام 1948، مع قوافل النازحين، بلا قوافل، إلي بلاد العرب الواسعة. ثم تسلل عائدًا إلي قريته بعد قيام الدولة. فظل أهل القرية يحفظون فيما بينهم أمر عودته. فآووه وأطعموه. واحترف صناعة الحصير والمكانس. فزوجوه. وادعوا أن زوجه هي امرأة أخيه الثانية، وأن أولاده هم أولاد أخيه منها. وحفظوا السر هم وأولادهم من بعدهم فتكاثر أولاده وتكاثر حفظه السر فلم يبلغ آذان السلطة علي الرغم من تكرار التطويق طول الأعوام العشرين الماضية. وكان يموت مختار ويولون مكانه مختارًا، فيختار لهم ما شاؤوا من الوشاية إلاّ هذا السر الذي أصبح كالعرق الدساس لا يدسون علي بعضهم البعض به، أو كيقظة الضمير الذي يجب ألاّ يوقظ.

حتي شاخ السر فوافاه الأجل الليلة فدفنوه صمتًا وبكوا عليه صبرًا.

– ومن تكون تلك المرأة التي اقتحمت علينا المضافة؟

– أم أولاده.

– ومن تكون لك؟

– والدتي!

– خفف عنك. لقد عاش عمره، رحمه الله!

– ولكنني لم أعشه. كل يقول هذا والدي. أما أنا فأنكرته حتي أعيش.

– حتي يعيش.

– هذا هو سري الذي لم يمت بموته. وكان الفجر قد طلع.

عودة يُعاد إلي البيت القديم

بدأت الأمور تختلط في عقلي عن يعاد حين بدأنا بتناول طعام الإفطار، فولا مخلوطًا بالحمص، في مطعم في العفولة. فاستغربت يعاد أن يتقن اليهود، القادمون من أوروبا، هذا الفولكلور العربي. فقلت لها: بل هم قادمون من بلاد العرب ولم يتغير عليهم شيء حتي ولا الشتيمة – يَشتمون ويُشتمون بلغة الضاد.

ضحكت يعاد وشتمتني تحببًا. قلت: هل تشتم البنت والدها؟ قالت: بل أنت عمي وفارس أحلامي منذ الصغر.

قلت: والذي حولني، بين ليلة وضحاها، من أبيك إلي عمك، سيعيد إليك ذاكرتك الليلة. فهيا إلي حيفا نوصل ما انقطع.

وفي السيارة، التي حملتنا إلي حيفا، أخذت يعاد تلاطفني وتقول: سأفاجئك يا عمي مفاجأة. إما أن تكون سارة أو أن تكون سيئة، فأنت تحكم.

وأخذتني كما يأخذ المعلم تلميذه وأسمعتني حكاية لم أستطع تصديقها. ولكنها ظلت تحكي، وتحكي فلا أجد لحكايتها من جواب سوي: مستحيل!

قال إن أمرها اختلط عليّ. فيعاد، التي انتظرتها، هي والدتها. وقد ماتت.

– وأما أنا، يا عمي، فابنة يعاد التي انتظرتها.

– مستحيل، مستحيل!

– هل أشبهها كل هذا الشبه يا عماه؟

– مستحيل، مستحيل!

وقالت إن والدتها كانت تذكرني دائمًا بالخير ولذلك سمت ابنها سعيدًا باسمي، وابنتها يعاد باسمها، (حتي إذا عدت،

يا يعاد، ستقولين له: (لم تغيرنا الغربة).

– ها نحن التقينا، يا عماه. فهل تغيرنا؟

– الصبا هو الصبا ولم يتغير. لكنني أري، ويا لمصيبتي أن الزمن الذي انتصر شبابك عليه قد انتقم من ذاكرتك. فكيف ينسي الحبيب حبه الأول، والزهرة الفجر الذي برعمها؟

– هل كنت تحبها هذا الحب كله يا عماه؟

– أحبك كما أحب الشيخ أن يكون ماضيه حلمًا فيستيقظ. لقد استيقظت. فكيف أجدك تهذين في المنام؟

وأوغلت في أوهامي كغريق يوغل في مغارة تحت الماء يلوح له، في طرفها البعيد، سراب نور.

قلت: حين تدخل بيتي العتيق في شارع الجبل ستستيقظ.

فلما وصلنا إليه، تأبطت ذراعها وأخذت أصعد بها الدرجات، التي دحرجوها عليها من قبل عشرين عامًا، وأنا أحسب نفسي عريسًا في ساعة الدخلة.

ألقيت الأعوام العشرين الماضية في صندوق القمامة في ساحة الدرج وصعدت إلي المنزل وأنا أطير بجناحين من يعاد.

وكنت أهتف: ها نحن نعود عودة المنتصرين!

وكان الجيران يفتحون أبواب بيوتهم محيين ومستفهمين. فكانت تركض إلي جانبي وهي ترد التحية وتقول متباهية: عمي بعد غياب العمر!

فأطلقت جارة زغرودة ألحقتها الجارات الأخريات بزغاريد متلاحقة كتلاحق صفارات السفن في ميناء حيفا ليلة رأس السنة.

فلما دخلنا المنزل قالت يعاد وهي مبهورة النفس: استرح، أيها المنتصر. أما أنا فأعود أسيرة!

وسألت: لأي شيء زغردت النساء؟

قلت: لعودتك.

– أسيرة؟

زائرة.

– فما يفرحهم؟

– السجناء يحلقون ذقونهم ويتزينون ويفرحون في يوم الزيارة.

قالت: ما هذا وقت الفرح.

– حتي فرحة الزيارة تبخلين بها علي هؤلاء السجناء؟

قالت: كيف تأتي الفرحة بنعمة الغازي؟

فأجبت: كما ينضج الطعام بنعمة النار.

فلما سألتني: من أين أتتك هذه الحكمة؟

أجبتها: من يوم ما شكسبرني حراس السجن.

وحكيت لها حكايتي معهم وكيف التقيت أخاها في الزنزانة فسمعت منه كلامًا جعلني أري الزنزانة جنة وقضبان الكوة جسرًا نحو القمر.

فكانت تضحك تارة وتبكي تارة. وتقول: أخبرني عن يعادك؟ فأروي لها حكايتنا القديمة. وأقول: هنا جلسنا. وهنا، في هذه الغرفة، ظللت يا شيطانة مستيقظة تنتظرينني وأنا منكتم الأنفاس في الغرفة المجاورة، لأنني أهبل، حتي جاء العسكر.

– العسكر يطوقون الدار!

هذا ما سمعته من الجارة، التي اقتحمت علينا الباب دون استئذان فوجدتني جاثيًا علي أربع تحت قدمي يعاد أمثل وقعتي الأولي عن الدرج، قبل عشرين عامًا، ويعاد تضحك.

فلم أقم من جثوتي.

في انتظار يُعاد الثالثة

وأما يعاد فجلست علي مقعد ووضعت رجلاً علي رجل، جلسة الرجل، وقالت: قم وناولني سيجارة ولا ترع!

– فيأخذونك كما أخذوك في تلك المرة.

– أخذوا والدتي في تلك المرة.

– فيأخذونك هذه المرة.

– الأمر هذه المرة غيره في تلك المرة.

– ولكنهم لم يتغيروا.

– إذا لم يتغيروا فهي مأساتهم. أما نحن فتغيرنا.

– لن تستطيعي أن ترديهم. وسوف يأخذونك مني.

– إلي أين؟

– إلي ديار الغربة؟

– بل أنا راجعة إليها، أخذوني أم تركوني. فهل لديك من حل؟

– أن نختبئ لدي الجارة.

– إلي متي؟

– نفعل ما فعله الشيخ الضرير في قرية السلكة.

– عشرين عامًا أخري؟

– حتي تتغير الأمور.

– فمن يغيرها؟

– أخوك سعيد قال: الشعب.

– الشعب وهو مختبئ؟

– أنا وأنت نختبئ. أما أخوك سعيد فيكافح.

– فيهدي الحرية إلي المختبئين؟

وضحكت متهكمة ثم قالت: إذا عشت يا عمي سعيد فستكون ابن سبعين عامًا حين تلتقي يعاد الثالثة. ولن تعرفها ولن تعرفك.

وأجلستني إلي جانبها:

– هل تحبني يا عماه؟

– بحنين عمري.

– وهل تحب أن تتزوجني؟

– حتي لا يفرقنا الموت.

– أتزوج شيخًا في آخر عمره؟

– سأعود إلي البداية.

– مستحيل!

– فكيف يؤمن أخوك بأنهم سيعودون منذ البداية؟

– سمعوا ذلك من شيوخهم. والشيوخ لا تذكر من البداية سوي عنفوان الشباب، فتستحلي البداية. هل تعرف البداية، حقًا، يا عمي؟ ليست البداية ذكريات عذبة، فحسب، عن صنوبر فوق الكرمل أو عن بيارات فوق ظهوركم، أو عن أغاني بحارة يافا. هل كانوا حقًا يغنون؟

هل تريد العودة إلي البداية حتي تبكي علي أخيك، الذي قطعه الونش إربًا إربًا وهو يقطع اللقمة

من الصخر، مرة ثانية ومنذ البداية؟

– أخوك سعيد قال إنهم تعلموا من أخطاء من سبقهم فلن يرتكبوها.

– لو كانوا تعلموا لما تحدثوا عن العودة إلي البداية.

– من أين لك هذا الكلام الكبير يا يعاد الصغيرة؟

– من عمري الكبير الذي ينتظرني.

– فهل تتركينني؟

– الماء لا يترك البحر يا عماه. يتبخر ثم يعود في الشتاء. ويعود أنهارًا وجداول. ولكنه يعود.

– فهل أبقي وحيدًا؟

– حتي ضرير السلكة لم يعش وحيدًا. اذهب واصنع الحصر في قرية السلكة.

ولكنني لم أذهب إلي قرية السلكة، ولم أصنع الحصر لا في السلكة ولا في غيرها.

فقد أقبل العسكر. فبقيت في موضعي بلا حراك سوي أني وضعت يدي فوق عيني فأغمضتهما حتي لا أري النهاية كما رأيت البداية.

فشعرت وكأن أيدي العسكر تدفعني إلي الخارج وتقذفني علي الدرجات. فأجدني مرتميًا في فناء الدرج. فلا أستنجد بصاحبي يعقوب هذه المرة الذي أصبح يحتاج إلي من ينجده.

وأسمع من فوق، في منزلي، صراخًا أنثويًا، وصوت لطمات وركل وجلبة. وأري معركة حامية تدور بين يعاد والعساكر. وأراها تقاوم وتصرخ وتركل بقدمها. وأراهم يتكاثرون عليها ويدفعونها أمامهم إلي سيارة الترحيل وأسمعها، والسيارة تتحرك، تنادي: سعيد، لا يهمك فإنني عائدة!

وفتحت عيني وشهقت قائلاً: ها قد عدنا منذ البداية!

لكنني رأيت عجبًا. رأيت ضابط الشرطة يقرأ في أوراق يعاد بكل احترام. وسمعته يعتذر لها عن الأمر الجديد الصادر بإلغاء الإذن بدخولها إلي إسرائيل، وعن إلزامها بالعودة – معهم – إلي نابلس حالاً. وقال أنه عليها أن تعود، غدًا من حيث أتت، أي عبر الجسر.

وسمعتها تقول: لم أنتظر منكم غير ذلك.

فأجابها: لم ننتظر منك الإقامة في بيت سعيد.

فصاحت: هذا بلدي، داري، وهذا عمي!

قلت في نفسي: سأحفظها مؤونة للعشرين القادمة.

قال: ممنوع.

فقالت أنها لم تنتظر منهم سوي ما هم يفعلون. فكيف تنتظرون منا سوي ما نفعل؟

فانحني الضابط أمامها باحترام عسكري وهو يقول:

يا صغيرتي الحسناء لقد انتظرنا منكم أكثر مما تفعلون.

وودعتني يعاد مصافحة. ثم اقتربت بوجهها من وجهي وقالت: هل قبلت والدتي قبل رحيلها، يا عماه؟

قلت: حالوا ما بيني وبينها.

قالت: إذن ضاعت عليك القبلة الثانية. ومضت.

مسك الختام، الإمساك بالخازوق

قلت لك، يا محترم، إنني لم أذهب إلي قرية السلكة ولم أصنع الحُصُر لا فيها ولا في غيرها. فالذي جري هو أنني ذهبت وقعدت علي ذلك الخازوق.

وجدتني، مرة أخري، متربعًا وحيدًا علي رأس ذلك الخازوق الذي بلا رأس. كابوس يحط علي صدري ليلة ليلة، بلا انقطاع، فلا أقوي علي إزاحته عن صدري أو علي أن أستيقظ. خازوق في كابوس. والخازوق الحقيقي هو ذلك الوسواس، الذي لم أستطع أن أفكه عني، أن ماذا سيحل بك، يا ابن النحس، لو ظهر أنه ليس بكابوس بل خازوق واقع؟

أضفت غطاء ثقيلاً إلي غطائي فاخترقته البردية. فأضفت آخر حتي السابع فاخترقتهم جميعًا. فصرخت: من لي بذات الحسن ترفع عني هذه الأغطية؟

ولكن العسكر أخذوها مرة أخري. وكنت أتمتم باسمها وألومها علي مصيري لومًا شديدًا. فهي التي أقنعتني بأن خازوقي الماضي ليس بكابوس، فكيف أومن بأن خازوقي الحالي هو كابوس؟

عادت (يعاد) فإذا بها ليست (يعاد). باقة ورد في عرس المستقبل وإكليل زهور ناضرة علي قبر الماضي في وقت معًا. انتظرت عودتها عشرين عامًا فلما عادت قالت: لست يعادك. تركتني وحيدًا وقالت: لست وحيدًا. فلما سألتها: أتعودين؟ أجابت: كما يعود ماء البحر إلي البحر، في الشتاء! لقد أقبل الشتاء يا يعاد، فعودي! قالت: هذا شتاؤك وحدك.

وحدي، مرة أخري، وفوق هذا الخازوق أنظر إلي خلق الله من فوق علوه الشاهق.

وكانوا يأتونني وحدانا.

فأتاني صديقي القديم، يعقوب. وكان حزينًا. فصحت به: الخازوق، يا صديق العمر! قال: كلنا نقعد عليه! قلت ولكنني لا أراكم! قال: ولا نحن نري أحدًا. كلٌّ وخازوقه وحيد. وهذا هو خازوقنا المشترك. ومضي.

وأتاني الرجل الكبير. وكان مذهولاً. فصحت به: الخازوق يا عم! قال: ما هو بخازوق بل هوائي تلفزيون. صار الواحد منكم مثل الراكب في غواصة، كلما أوغلتم في العمق زدتم الهوائي ارتفاعًا. اقعد علي هوائيك واسترح.

ومضي.

وأتاني الشاب الذي يتأبط الجريدة. وكان شابًا. فصحت به: الخازوق، يا ولداه! قال: الذي لا يريد أن يقعد عليه ينزل إلي الشارع معنا. لا بديل ثالث، فاختر. ومضي في الشارع.

ألا يوجد لي مكان تحت الشمس إلاّ فوق هذا الخازوق؟ ألاّ يوجد لديكم خازوق أقصر ارتفاعًا أقعد عليه؟ ربع خازوق، نصف خازوق، ثلاثة أرباع خازوق؟

وأتتني يعاد الأولي فمددت لها يدي حتي أرفعها إلي فوق. فأمسكت بيدي وأخذت تشدني إلي قبر الغربة. فتشبثت بخازوقي.

وأتتني (باقية) منادية أن انزل فقد بني لك (ولاء) إلي جانبه قصرًا من صدف البحر. فتشبثت بخازوقي. وأتاني سعيد، ابن يعاد وأخو يعاد، وهو يلوح بعباءته الأرجوانية وينادين: تعال يا والدي أدفئك بعباءتي! فتشبثت بخازوقي.

ورأيت الشاب، الذي يتأبط الجريدة، وقد تأبط فأسًا. ثم رأيته يهوي بفأسه علي قاعدة الخازوق وهو يقول: أريد أن أنقذك! فصحت به أن كف لئلا أقع. وتشبثت بخازوقي.

وفيما أنا في هذه الحيرة من أمري، وقد تقوس ظهري، إذا بهيئة رجل طويل القامة، حتي ليبلغني وأنا في موضعي العالي، يقترب مني بطيئًا كغيمة سارحة. فلم أر في وجهه سوي تجاعيد أشبه بصفحة البحر حين تلفحه نسمة شرقية. فعرفته من أول وهلة. فخفق له قلبي شوقًا. ولولا خوفي من الوقوع لأكببت عليه ألثم خده.

صحت: سيدي شيخ الفضائيين ليس لي غيرك!

قال: أعرف ذلك.

قلت: جئت في وقتك!

قال: لا أجيئكم إلاّ في وقتي.

قلت: أنقذني يا ذا المهابة.

قال: أردت أن أقول: هذا شأنكم. حين لا تطيقون احتمال واقعكم التعس ولا تطيقون دفع الثمن اللازم لتغييره تلتجئون إليّ.

إلاّ أنني أري أن هذا الأمر أصبح شأنك وحدك. قل: إن شاء الله، واركب علي ظهري ولنمض.

وفيما نحن طائران في الفضاء، وأنا محمول علي ظهره أناجي أرواح أجدادي، منذ جدي الأكبر، أبجر بن أبجر حتي عمي الذي لقي كنز العائلة، وأدعوها أن تحضر، فتري، فتتباهي بابنها الفالح.

إذا بي أسمع، علي الأرض من تحتي، زغاريد.

فنظرت إلي تحت. فرأيت الشاب المتأبط الجريدة، وما زال يحمل فأسه. ورأيت يعاد ورأيت أخاها سعيدًا. وأبا محمود. وأطفاله يحملون أغطيتهم علي ظهورهم ويقومون. والجارات، وكنّ يزغردن. والعامل (أخت) من وادي الجمال يحمل مزودته ويذهب إلي عمله، ويعقوب وقد نزل عن خازوقه. وخالتي أم أسعد (المخصية). وحتي هي كانت تزغرد.

ورأيت يعاد ترفع رأسها إلي السماء وتشير نحونا وتقول:

حين تمضي هذه الغيمة تشرق الشمس!

للحقيقة والتاريخ

يرغب المحترم، الذي تلقي هذه الرسائل العجيبة، أن يبلغكم بأنها كانت ترد عليه مدموغة في بريد عكا. ولذلك ظل يبحث في عكا عن مصدرها حتي قادته قدماه إلي مستشفي الأمراض العقلية داخل السور علي شاطئ البحر.

فرحب به المسؤولون أجمل ترحيب. وبالمناسبة طلبوا منه أن يكتب عن استيائهم الشديد من الحكومة التي تصر علي إبقاء المستشفي في هذا المكان الذي كان في زمن الانتداب البريطاني سجنًا رهيبًا، وفيه غرفة الإعدام التي شنق الإنجليز فيها عددًا من محاربي منظمة (ايتسل)، أي المنظمة العسكرية القومية. وهذه الغرفة حولت، منذ قيام الدولة، إلي متحف مصون لصون ذكراهم. ومستشفي الأمراض العقلية، القائم في البناء نفسه، يسيء إلي كرامة هذا المزار.

ويدعي المحترم، الذي تلقي هذه الرسائل العجيبة. بأنه أبدي دهشته، أمام المسؤولين لخلو غرفة الإعدام، المتحف، من أي ذكر للعرب الذين شنقهم الإنجليز فيها.

فأجابوه: هذا واجب أهلهم.

قال: أين؟

قالوا: ليبدأوا بأن يصونوا قبورهم.

قال: فهل يزورونها؟

قالوا: تلك مسألة أخري.

حينئذ انتقل المحترم، الذي تلقي هذه الرسائل العجيبة، إلي المسألة الأخري، وهي المسألة التي زار مستشفي الأمراض العقلية من أجل حلها. أي معرفة من يكون سعيد أبو النحس المتشائل، هذا.

ففتشوا في دفاتر المستشفي عن نزلائه منذ قيام الدولة. فلم يهتدوا إلي هذا الاسم. فبحثوا عن أقرب الأسماء إليه فوجدوا اسمًا يثير الظن. وهو سعدي نحاس، الملقب أبو الثوم. ويقال: أبو الشوم. وقالوا: إن امرأة شابة زارت المستشفي مؤخرًا فسألت عنه معلنة أنها من أقربائه وقادمة من بيروت عبر الجسر. فأخبروها بأنه توفي منذ حوالي العام. فقالت إنه استراح وأراح.

ومضت عبر الجسر.

كذلك مضي المحترم، الذي تلقي هذه الرسائل العجيبة، وفي قلبه رغبة في أن تساعدوه في البحث عن سعيد هذا.

ولكن، أين ستبحثون؟

فإذا صدقتم حكاية التجائه إلي إخوته الفضائيين ورحتم تبحثون عنه في دياميس عكا القديمة فقد يصيبكم ما أصاب المحامي مع المجنون: المحامي الذي صدق مجنونًا فراح يبحث عن كنزه المطمور، كما ادعي، في الأرض بالقرب من شجرة خروب. فظل يحفر إلي الشرق وإلي الشمال وإلي الغرب وإلي الجنوب حتي اقتلع الشجرة كلها ولم يجد كنزًا. وكان المجنون، في هذه الأثناء، يصرف وقته بطلاء حائط في المستشفي بفرشاة يغمسها بدلو بلا قاع. فلما عاد المحامي إليه يتصبب عرقًا سأله المجنون: هل اقتلعت الشجرة؟ قال: اقتلعتها من جذورها ولم أعثر علي كنزك.

قال المجنون: إذن هات فرشاة ودلوا بلا قاع وقف إلي جانبي وادهن!

– فكيف ستعثرون عليه، يا سادة يا كرام، دون أن تتعثروا به؟!...

ورأيت الشاب، الذي يتأبط الجريدة، وقد تأبط فأسًا. ثم رأيته يهوي بفأسه علي قاعدة الخازوق وهو يقول: أريد أن أنقذك! فصحت به أن كف لئلا أقع. وتشبثت بخازوقي.

وفيما أنا في هذه الحيرة من أمري، وقد تقوس ظهري، إذا بهيئة رجل طويل القامة، حتي ليبلغني وأنا في موضعي العالي، يقترب مني بطيئًا كغيمة سارحة. فلم أر في وجهه سوي تجاعيد أشبه بصفحة البحر حين تلفحه نسمة شرقية. فعرفته من أول وهلة. فخفق له قلبي شوقًا. ولولا خوفي من الوقوع لأكببت عليه ألثم خده.

صحت: سيدي شيخ الفضائيين ليس لي غيرك!

قال: أعرف ذلك.

قلت: جئت في وقتك!

قال: لا أجيئكم إلاّ في وقتي.

قلت: أنقذني يا ذا المهابة.

قال: أردت أن أقول: هذا شأنكم. حين لا تطيقون احتمال واقعكم التعس ولا تطيقون دفع الثمن اللازم لتغييره تلتجئون إليّ.

إلاّ أنني أري أن هذا الأمر أصبح شأنك وحدك. قل: إن شاء الله، واركب علي ظهري ولنمض.

وفيما نحن طائران في الفضاء، وأنا محمول علي ظهره أناجي أرواح أجدادي، منذ جدي الأكبر، أبجر بن أبجر حتي عمي الذي لقي كنز العائلة، وأدعوها أن تحضر، فتري، فتتباهي بابنها الفالح.

إذا بي أسمع، علي الأرض من تحتي، زغاريد.

فنظرت إلي تحت. فرأيت الشاب المتأبط الجريدة، وما زال يحمل فأسه. ورأيت يعاد ورأيت أخاها سعيدًا. وأبا محمود. وأطفاله يحملون أغطيتهم علي ظهورهم ويقومون. والجارات، وكنّ يزغردن. والعامل (أخت) من وادي الجمال يحمل مزودته ويذهب إلي عمله، ويعقوب وقد نزل عن خازوقه. وخالتي أم أسعد (المخصية). وحتي هي كانت تزغرد.

ورأيت يعاد ترفع رأسها إلي السماء وتشير نحونا وتقول:

حين تمضي هذه الغيمة تشرق الشمس!

الفـــــهـــــرس

الكتاب الأول يعاد
مِسْك الختام
سعيد يدّعي التقاء مخلوقات من الفضاء السحيق
سعيد يعلن أن حياته في
سعيد ينتسب
سعيد يدخل إسرائيل لأول مرة
بحْث في أصْل المتشائل
كيف شارك سعيد في حرب الاستقلال لأول مرة
ورود ذِكْر (يُعاد) لأول مرة
جلسة ليلية عجيبة في فناء جامع الجزار
الإشارة الأولي من الفضاء السحيق
سعيد يفشي بسرّ عجيب من أسرار العائلة
كيف لم يمُتْ سعيد شهيدًا في وادٍ على الحدود اللبنانية
كيف أنقذ الفجر الصادق سعيدًا من الضياع في دياميس عكا
كيف أصبح سعيد زعيم عمال في اتحاد عمال فلسطين
سعيد يلتجئ لأول مرة إلى الحواشي
كيف لم يعُدْ سعيد أبو النحس تيْسًا
هل كان سعيد هو رأس الخيش؟
الليلة الأولي، وحيدًا، مع (يعاد)
يا سعيد، لا يهمّك، فإنّني عائدة!
الجرح المفتوح
الكتاب الثاني باقية
كيف اضطر سعيد إلى الإمساك عن الكتابة لأسباب أمنية
الشَّبه الفريد بين كنديد وسعيد
كيف تحول سعيد إلى هرة تموء
كيف كانت التماسيح تعيش في نهر الزرقاء
باقية – التي أشركته في سرّها قبل أن تصبح شريكة حياته
كيف أصبح سعيد (ذا السرّين)
كيف أصبح سعيد صاحب دعوة
حكاية الثريّا التي رجعت تسفّ الثري
حكاية السمكة الذهبية
بحث عجيب في الخيال الشرقي وفوائده الجمّة

حادث أصعب على التصديق من الموت على الأحياء
آخر الحكايات حكاية السمك الذي يفهم كل اللغات
الكتاب الثالث يعاد الثانية
سعيد يجد نفسه فوق خازوق بلا رأس
كيف أصبح علم الاستسلام، فوق عصا مكنسة،
حديث شطط في الطريق إلى سجن شطة
كيف وجد سعيد نفْسه وسط حلقة عكاظية–شكسبيرية
سعيد في بلاط مَلِك
سعيد يُنشِد أنشودة السعادة
وجهتا نظر في مصيبة اسمها الطوق!
السرّ الذي لم يُمت بموت السرّ
عودة يُعاد إلى البيت القديم
في انتظار يُعاد الثالثة
مسك الختام، الإمساك بالخازوق
للحقيقة والتاريخ